

الجامعة الاميركية في بيروت  
آراء الجاحظ في مناقب الامم ومثالبها :  
عرض وتحليل .

T  
204A

جمال فواد العطار

رسالة مقدمة الى الدائرة العربية  
فني  
الجامعة الاميركية في بيروت  
لنيل درجة الماجستير في الادب العربي .

كانون الثاني ١٩٨٩

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT

The Views of al- Jāhīz concerning the Nations  
As Reflected in His Works:  
An Exposé and a Critique.

By

Jamāl Fu'ād al-Aṭṭār

A Thesis

Submitted in Partial Fulfillment of the  
Requirements for the Degree of Master of Arts in  
the Department of Arabic and Near Eastern Languages,  
at the American University of Beirut  
Beirut, Lebanon

January, 1989

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT

Thesis Title :

The Views of al-Jāhiz concerning the Nations  
As Reflected in his works:  
An Exposé and a Critique.

By

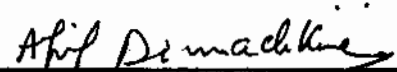
Jamāl Fu'ad al-Attār

Approved:


Sāmī Makārīm

  
Advisor

'Afīf Dimashqiyya

  
Member of Committee

Tarīf Bazzī

  
Member of Committee

Tarīf Khālidī

  
Member of Committee

Date of Thesis Presentation

January 6<sup>th</sup>, 1989.

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT

Thesis release form

I, Jamal Fu'ad al-Attar

authorize the American University of Beirut to supply copies of my thesis to libraries or individuals on request.

OR

do not authorize the American University of Beirut to supply copies of my thesis to libraries or individuals.

Jamal F. Attar  
Signature

January 25<sup>th</sup>, 1989.  
Date

## فهرس المحتويات

---

- ١- المقدمة . ١ - ٣ .
- ٢- الباب الاول : عرض لآراء الجاحظ في مناقب الامم المعتبرة ومثالبها .
  - (أ) الفصل الاول - العرب : ٥ - ٥١ .
  - (ب) كلمة في سائر الامم المعتبرة : ٥٢ - ٥٣ .
  - (ج) الفصل الثاني - الهند : ٥٤ - ٦١ .
  - (د) الفصل الثالث - الفرس : ٦٢ - ٧٤ .
  - (هـ) الفصل الرابع - الروم : ٧٥ - ٨٠ .
  - (و) الفصل الخامس - الترك : ٨١ - ٩٢ .
  - (ز) الفصل السادس - الصين : ٩٣ - ٩٥ .
  - (ح) الفصل السابع - اليونان : ٩٦ - ١٠٤ .
- ٣- الباب الثاني : عرض لآراء الجاحظ في الامم غير المعتبرة .
  - (أ) الفصل الاول - الصقالبة : ١٠٦ - ١١٠ .
  - (ب) الفصل الثاني - اصناف السودان : ١١١ - ١٢٠ .
- ٤- الباب الثالث : الخاتمة . مقاييس الجاحظ في الحكم على الامم وتحليل آرائه في هذا الموضوع : ١٢٢ - ١٢٨ .
- ٥- ثبت مصادر الرسالة ومراجعتها : ١٢٩ - ١٣٣ .

## المقدمة

ان الفترة الزمنية الواسعة التي عاشها الجاحظ من عمر الخلافة العباسية لهي جديرة حقا بالدراسة. فالجاحظ الذي عاش من ( ١٦٠ هـ / ٧٧٧م - ٢٥٥ هـ / ٨٦٩م )<sup>(١)</sup> ، عاصر احد عشر خليفة هم : المهدي والهادي والرشيد والامين والأمين والمعتصم والواثق والمتوكل والمتنصر والمستعين والمعتز . ولم تكن طلاقة الجاحظ سلبية برجال البلاط العباسي بل كانت طلاقته وثيقة بحيث تهباً للجاحظ كما يقول طه الحاجري ان يكون " ضرورة من ضرورات الدولة ، يساهم بأدبه وعلمه وقدرته الكلامية في تناول بعض المسائل التي كانت تعنيها وتشغل بالها ."<sup>(٢)</sup> ولعل الجاحظ كان اشبه بمستشار الشوعيون الداخلية خلال تلك الفترة الواسعة من عمر الخلافة . وان رسائله الهادفة الى توجيه رجال الدولة كالتي ألفها في موضوع الامامة<sup>(٣)</sup> حين وقعت الفتنة بين الامين والأمين ،

(١) انظر :

Encyclopaedia of Islam, new ed., s.v. "Al-Djāhiz", by Charles Pellat.

وانظر ايضا :

Charles Pellat, The Life and Works of Al-Djāhiz, (University of California Press, 1969), p. 3.

(٢) طه الحاجري ، الجاحظ : حيات وآثاره ( القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٠ ) ، ص ٣٦٠ .

(٣) الجاحظ ، " رسالة في استحقاق الامامة " و " رسالة الجوابات في الامامة " في : رسائل الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، ج ١ ( القاهرة : مكتبة الخانجي ، ١٩٦٤ - ١٩٧٩ ) ، ج ٢ ( ١٩٧٩ ) ، ص ٢٠٧ و ٢٨٥ . وانظر " رسالة الجاحظ في الحكمين وتصويب امير المؤمنين علي بن ابي طالب " ، تحقيق شارل بلا ، مجلة الشرق ( بيروت ) ، السنة ٥٢ ، ج ٥ ، ١٩٥٨ . وانظر مقالة الستشرق قاهريل فيراند حول فتنة الامين والأمين ولدى هارون الرشيد التي حصلت في عام ١٩٥ هـ / ٨١٠م في : Encyclopaedia of Islam, new ed. s.v. "Al-Amīn," by Gab. Ferrand.

او موضوع تأليف قلوب جند الخلافة (١) او التي كتبها في توجيه القاضي ابن ابي  
دواد (٢)، تدل على ان رأى الحاجى السابق ان الجاحظ كان ضرورة من ضرورات  
الدولة العباسية ليس بعيدا عن الحقيقة كثيرا .

ومن خلال الفترة الطويلة التي عاشها الجاحظ ، استطاع ان يطلع علمنا  
بآراءه لا تعكس نظرة العرب في انفسها من حيث هي امة معتبرة فحسب وانما فسي  
عدد لا بأس به من الامم المعتبرة كالفرس والروم والهند والصين والترك واليونان  
فضلا عن اسم السودان وامة الصقالبة (٣) . والجدير بالذكر ان لفظي الجنس والامة  
في ادب الجاحظ هما لفظان مترادفان لحقيقة واحدة ، وعادة ما يأتي هذا المعنى  
الواحد بهذين اللفظين او بالفاظ اخرى مثل العالمين - الناس - العالم وسكانه -  
الدنيا واهلها - الجيل - الصنف ، وينطبق ذلك على سائر كتابات الجاحظ التي  
وصلتنا .

---

(١) اى رسالته " في مناقب الترك وعامة جند الخلافة " التي كتبها الى الفتح بسن  
خاقان حين دخل الترك رافدا ساعدا الى جسم الدولة العباسية ، مع ما  
وافق ذلك من مشاكل . انظر رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٥ - ٨٦ .

(٢) اى رسالة " المعاش والمعاد " التي كتبها لابن ابي دواد ، وزير التوكيل  
الستوفى ٢٣٩ هـ / ٨٥٣ - ٨٥٤ م . انظر المصدر نفسه .

(٣) تجدر الاشارة الى ان الجاحظ لا يعد الصقالبة واصناف السودان من الامم  
المعتبرة ، باستثناء امة الهند .

تقتصر هذه الرسالة على عرض لآراء الجاحظ في مناقب الامم ومثالبها .  
والامم المعتبرة لديه هي العرب والفرس والهند والروم والصين والترك واليونان (١)  
كما تتضمن الرسالة ايضا عرضا لآراءه في الصقالبة واصناف السودان كالزنج والسند  
والاحباش والنوبة والقبط . ونبدأ الآن بعرض آراء الجاحظ في الامم المعتبرة مفتتحين  
برأيه في العرب ومحاولين التعرف على مقاييسه (٢) التي ترقى بالامم الى منزلة  
الامم المعتبرة ، والتي تحول بينها وبين هذه الدرجة .

- 
- (١) ان من يستقرى مفهوم الجاحظ للامم المعتبرة يلحظ عدم ثبات هذا التصنيف على وجه  
واحد . فهي تارة اربع : العرب والفرس والهند والروم . راجع كتابه  
البيان والتبيين ، تحقيق عبدالسلام هارون ( بيروت : دار الفكر ، د . ت )  
١ : ١٣٧ و ٣٤٨ و كتابه " في الاخبار وكيف تصح " تحقيق شارل بلا ، المجلة  
الاسيوية ، Journal Asiatique ج ٢٥٥ ، ١٩٦٧ . و " رسالة في الحكمين . . . "  
ص ٤٧٣ حيث يقول : " هو لا " رؤسا الامم " . وطورا تتسع الامم المعتبرة  
ليصل عددها الى خمس فتشمل الصين والترك واليونان مع الغائه للهند والروم ضمن  
مجموعة الامم المعتبرة الاربع . كما في " رسالة مناقب الترك " ، في رسائل الجاحظ ،  
تحقيق عبد السلام هارون ، ج ١ ( ١٩٦٤ ) : ٦٧ ، ويلاحظ ان اليونان في ادب  
الجاحظ هم غير الروم . انظر " رسالة الرد على النصارى " المصدر السابق ،  
ج ٣ : ٣١٤ - ٣١٥ وكتاب البيان ١ : ٨٨ .
- (٢) بعد عرض الآراء ، الذي يشكل معظم الرسالة ، نأتي الى التعرف على هـذـه  
المقاييس في الفصل الختامي من الرسالة .



## الباب الاول

=====

عرض لآراء الجاحظ في مناقب الامم المعتبرة ومثالبها

=====

## الفصل الاول

=====

### العرب

=====

#### مناقبة العرب

تناول الجاحظ في نظرتة في العرب مناقبها ومثالبها . اما المناقب التي جعلتها في رأيه تفضل الامم جمعاء ، فهي ان النبي محمدا افضل بني هاشم ، وبنو هاشم افضل قريش ، وقريشا افضل قبائل العرب . وسنبداً بحثنا في العرب بذكر المحاسن التي تمتاز بها عن غيرها من الامم ، ثم نذكر المحاسن التي تمتاز بها قريش على العرب ، وبعد ذلك نذكر المحاسن التي يمتاز بها بنو هاشم على قريش ، ثم نذكر الخصال التي فضل بها محمداً بنو هاشم .

وقد ذكر الجاحظ هذه المميزات متفرقة في مختلف آثاره (١) ، فكان لا بد من اظهار هذه المميزات ومحاولة تنظيمها مجتمعة بالرجوع الى جميع هذه الآثار .

---

(١) اما آراؤه في العرب فقد وردت في البيان والتبيين ، وكتاب الحيوان ، تحقيق عبد السلام هارون ، ٧ اجزاء ، الطبعة ٣ ، ( بيروت : دار احياء التراث العربي ، ١٩٦٩ ) ، و البخلاء ، تحقيق طه الحاجري ، ( القاهرة ، دار الكتاب المصري ، ١٩٤٨ ) ، و رسائل الجاحظ ، وكتاب " الاخبار وكيف تصح " . واما آراؤه في قريش ، فقد وردت خاصة في " كتاب في الاوطان والبلدان " و " كتاب في المعلسين " ورسالة في مدح التجارة " ضمن رسائل الجاحظ كما وردت في البيان والتبيين . واما آراؤه في بني هاشم فقد وردت في رسائل الجاحظ وكتاب فضل بني هاشم على عبد شمس في رسائل الجاحظ ، تحقيق حسن السندوبي ، ( القاهرة : المطبعة الرحمانية ، ١٩٣١ ) وفي " رسالة تفضيل بني هاشم على من سواهم " ، مجلة لغة العرب ( بغداد ) السنة ٩ ج : ٦ ، ٧ ( ١٩٣١ ) ، وكتاب البخلاء . واما آراؤه في النبي محمداً فقد وردت في المصادر المذكورة اعلاه وخاصة في البيان والتبيين و رسائل الجاحظ . وحين نذكر لاحقاً رسائل الجاحظ فالمقصود بها تلك التي حققها عبد السلام هارون ، واما حين نستخدم الرسائل التي حققها السندوبي فسوف نميزها عن الاولى بذكر السندوبي بين قوسين .

## ١- ما تفضل به العرب سائر الامم

على رأس الخيرات المقسومة من الله (١) ، المفاضة على الخلق ، وتقف فضيلة البيان العربي او حظ العربية التي فضلت العرب بها الامم جميعا ، وذلك يعود لسببين : الاول ان البيان العربي اهل العرب لاستقبال التنزيل القرآني دون سائر الامم ، وقد قال الجاحظ في ذلك :

"... ولفضل الفصاحة وحسن البيان ، بعث الله تعالى افضل انبيائه واكرم رسله من العرب ، وجعل لسانه عربيا ، وانزل عليه قرآنا عربيا كما قال تعالى ( بلسان عربي مبين ) (٢) "

اما السبب الثاني الذي جعل العرب تفضل الامم ، فهو ان فضيلة البيان العربي لم تؤهل العرب لاستقبال التنزيل فحسب وانما تم بها افتتاح الخطاب الالهي لجميع الامم بعدما تم للعرب ما دعاه الجاحظ " حظ العربية " (٣) قال :

"... انما خاطب (٤) العرب ، وهم الحجة على جميع اهل اللغات ، ثم تصير تلك المخاطبة لجميع الامم بعد الترجمة على السنة هو " العرب ، الذين بهم بدأت المخاطبة لجميع الامم : (٥) "

فللعرب ان تفخر على سائر الامم ان اصبحت كما يقول الجاحظ بذلك العسـط او الخطاب ، الحجة على جميع اهل اللغات ، اي حجة الله على خلقه حين فتح امامها فرصة قيادة الامم وهدايتها الى المعاني المبتوثة في ذلك الخطاب لانه بلغتها ونبيها مخاطب الله العرب والعجم .

- 
- (١) اللفظ للجاحظ : انظر " رسالة كتمان السر وحفظ اللسان " في رسائل الجاحظ ١ : ١٧١ و " رسالة الوكلاء " ، المصدر نفسه ، ٤ : ١٠٣ . وفي الاخيرة يقول الجاحظ : " ابسى الله الا ان يقسم نعمه بين طبقات جميع عباد ، قسة عدل . "
  - (٢) الشعراء : ١٩٥ . انظر الجاحظ في " رسالة تفضيل النطق على الصمت " ، رسائل الجاحظ ، ٤ : ٢٣٧ .
  - (٣) الجاحظ ، " كتاب الاخبار وكيف تصح " ص ١٢ .
  - (٤) يعود الضمير المستتر في " خاطب " الى الله .
  - (٥) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٧ : ٢١٣ - ٢١٤ .

بعد فضيلة البيان العربي " الذي ليس كمثل بيان " (١) او اللغة التوليس كمثلها في السعة لغة (٢) ، رأى الجاحظ ان العرب فاقت الام لتميؤها بطائفة من الخصائص الاجتماعية هي من ذلك البيان ظيته ومادته . على رأس تلك الفضائس ما ساء الجاحظ " احكام العرب شأن المناقب والمثالب (٣) ، كأنما الجاحظ يوصي " بذلك الى ان العرب ما كان ليم لها حظ التنزيل لولا تمتعها بطائفة من الخصائص يسوقها ليهن على كونها تمثل البذرة الصالحة المرتقة للمجتمع الاسلامي . قال مشهدا بالدور الاصلاحى الاجتماعى للعرب ولفتها :

" . . . وليس في الارض قوم اعنى بدم جليل القبح ودقيقه ومدح دقيق الحسن وجليه من العرب ، حتى لو جهد افطن البرية واعقل الخليقة ان يذكر معنى لم يذكره ، لما اصابه . . . ولهم حظ العربية مع الحفظ لانسابهم ومحاسن اسلافهم وساوى الكاشم ، للتعابير بالقبح ، والتفاخر بالحسن ، ليجعلوا ذلك عوناً لهم على اكتساب الجميع واصطناع المعروف ، ومزجراً لهم عن اتيان القبح وفعل العار ، ولهم دهبوا اولادهم بما ادبهم به آباؤهم . . . " (٤)

وقبل تعداد بقية الخصال التي فضلت بها العرب العجم ، نشير الى ان هذه الخصلة العربية المتمثلة في ولعها بالمناقب وذمها المثالب عدّها الجاحظ من جملة الخيرات المقسومة من عند الله للخلق عامة والعرب خاصة ، ولا سيما الذين يمثلون في نظر الجاحظ ، وفي تلك المرحلة من التاريخ ( اى مرحلة ما قبل الاسلام ) ، البقية الثابتة على دين ابراهيم (٥) ، اى انها غير موجهة

(١) الجاحظ ، " كتاب الاخبار وكيف تصح " ٩٢ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) الجاحظ ، " رسالة في مناقب الترك وعامة جند الخلافة " ، رسائل الجاحظ ،

١ : ٦٩ - ٧٠ .

(٤) الجاحظ ، " كتاب الاخبار وكيف تصح " ، ص ٩٢ .

(٥) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٦ : ٢٢٣ .

اصلا للبقية غير الثابتة على دين ابراهيم والتي خصها الجاحظ بنقد دقيق . ثم ان الجاحظ ما انفك يلحظ خضوع الامم لتسيير الهبي كلما دار الحديث حول فضائل الامم فهناك تدخل الهبي واضح في تلوين الامم بجملة الخيرات المقسومات اصلا من عنده والمفاضة على جميع خلقه دون ان يكون ذلك التدخل حكرا للعرب لانه يشمل الامم جميعا . قال :

"... ثم اعلم بعد هذا ان كل امة وقرن وكل جيل وبني اب ، وجدتهم قد برعوا في الصناعات ، وفضلوا الناس في البهائم ، او فاقوهم في الاداب ، وفي تأسيس الملك ، او في النصر بالحرب ، فانك لا تجدهم في الغاية وفي اقصى النهاية ، الا ان يكون الله تعالى قد سخّرهم لذلك المعنى بالاسباب ، وقصرهم عليه بالعلل التي تقابل تلك الامور ، وتصلح لتلك المعاني... (١)"

ويرى الجاحظ ان هذه الخصائص او الخيرات التي تحققت للعرب انا تمت بتسخير الهبي يترافق مع حرية الارادة البشرية . قال :

"... وكل صنف من الناس مزين عندهم ما هم فيه ، وسهّل ذلك عليهم... فسخّرهم على غير اكرام ، ورغبتهم من غير دعا ،... والاسماء مبدولة ، والصناعات مباحة ، والمتاجر مطلقة... ولكنها مطلقة في الظاهر ، مقسمة في الباطن... (٢)"

ولقد جمع الجاحظ قدرا كبيرا من هذه الخصائص بقوله الذي يفيد التوافق المذكور والذي جعل نفوس العرب اكبر وهمها ارفع من سائر الامم :

"... والعرب لم يكونوا تجارا ولا صنّاعا ولا اطباء ولا حنّابا... ولا اصحاب زرع لخوفهم من صغار الجزية . ولم يكونوا اصحاب جمع وكسب ولا اصحاب احتكار لما في ايديهم . ولم يفتقروا الفقر المدقع الذي يشغل عن المعرفة ولم يستغنوا الفنى الذي يورث البؤسة ، ولم يحتلوا ذلا قط فيميت قلوبهم ، ويصغر عندهم انفسهم . وكانوا سكان فياف ، وتربية العسرا ،

(١) الجاحظ ، "رسالة في مناقب الترك" ، رسائل الجاحظ ، ١ : ٧٣ .

(٢) الجاحظ ، "رسالة في حجج النبوة" ، رسائل الجاحظ ، ٣ : ٢٤٢ - ٢٤٤ .

لا يعرفون الغمق ولا اللثق ولا العفن ولا التخم . اذهان حداد ونفوس  
مفكرة ، فحين حللوا حدهم ، ووجهوا قواهم لقول الشعر وبلاغة المنطق  
وتشقيق اللغة وتصاريف الكلام ، بعد قيافة الاثر (١) ، وحفظ النسب (٢) ،  
والاهتداء بالنجوم ، والاستدلال بالآفاق ، وتعريف الانواء (٣) والبصير  
بالخيال (٤) والسلاح وآلة الحرب ، والحفظ لكل سموع والاعتبار بكل  
محسوس ، واحكام شأن المناقب والسائب ، بلغوا في ذلك الغاية ، وحازوا  
كل امنية ، وبعض هذه العلل صارت نفوسهم اكبر وهمسهم ارفع من  
جميع الامم وافخر ولا يامهم احفظ وانكر . (٥)

- 
- (١) اورد الجاحظ هذه الخاصة بقوله " وقيافة الاثر مع قيافة البشر " في كتابه  
" الاخبار وكيف تصح " ص ٩١ . وقال الجاحظ ان القيافة لدى العرب شأن  
فطري لا يكتسب نجدها في بني مدليج ثم في خاص من خثعم وكذلك خزاعة ،  
وهي في قريش اقل وهي في بني اسد اقل . " انظر الجاحظ ، كتاب الترهيب  
والتدوير ، تحقيق شارل بلا ( بيروت : المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٥٥ ) الفقرة  
١٢٦ الصفحة ٩٢ .
- (٢) اورد الجاحظ هذه الخاصة بقوله " وللعرب جودة الحفظ لانسابهم وآثرهم  
الذي لا يقدر احد على مثله وان دونه وخلده في كتبه . " انظر : " كتاب الاخبار " ،  
ص ٩٣ . ورأى الجاحظ ان خصلة الحفظ من الخصال التي فحلت العرب  
بها العجم التي لا تحوط الانساب ولا تتحفظ المقامات ، انظر الجاحظ ،  
البخلاء ، ص ١٦١ ، و " رسالة مناقب الترك " ، رسائل الجاحظ ، ١ : ٢١ حيث  
يذكر ان العرب امة امية والعجم امة كتابية ، والحاسن والاضداد ، تحقيق  
فوزي عطوي ، ( بيروت ، دار صعب ، ١٩٦٩ ) ص ٣ .
- (٣) او المعرفة بعوامل الطبيعة التي يرجعها الجاحظ في كتاب الحيوان ، ج ٦ :  
٢٩ - ٣١ الى حاجة العرب الى تلك المعرفة ودقة اذهانها وجسودة  
حفظها وطول وقوع بصرها . انظر ايضا " كتاب الاخبار وكيف تصح " ، ص ٩٣ .
- (٤) قال الجاحظ في ذلك ايضا : " وليس في الناس اشد عجا بالخيال من العرب  
ولا اكثر لها ارتباطا ولا اهجا لمن لا يتخذها . " انظر " كتاب الاخبار وكيف  
تصح " ، ص ١٠٣ .
- (٥) الجاحظ ، " رسالة في مناقب الترك " ، رسائل الجاحظ ، ١ : ٦٩ - ٧٠ .

وفي موضع آخر حدد الجاحظ اسماً الام التي تفوقت العرب عليها ، كما ذكر  
خصائص اخرى فاقت العرب بها هذه الام قال :

"... وللعرب من صدق الحس و صواب الحدس وجودة الظن وصحة  
الرأى ما لا يعرف لغيرهم . ولهم العزم الذى لا يشبهه عزم ، والصبر  
الذى لا يشبهه صبر (١) ، والجود (٢) ، والانفة والحمية التي لا يدانيهم  
احد فيها ، ولا يتعلق بها رومي ولا هندي ولا فارسي ، لان هذه الام  
كلها باختلاف العرب شيما . . . . ." (٣)

والعرب ان شاركت بعض الام في دائرة الخيرات (٤) المقسومة من الله ، فشاركها  
تفيد في نظر الجاحظ التفوق في درجة انتشارها وتامها وكثرتها لا المساواة (٥) ، التي  
افرد لها بحثا مستقلا ، كما تفلح على المساواة . فالعرب فاقت سائر الام بخصائص هي من  
جنس خيرات الام كي يكون التفوق في محله ، فكأن الحظ الاوفر من الخيرات المفاضلة

- 
- (١) عبر الجاحظ عن صبر العرب ، حين وصفها بقلة الطعام وشظف العيش والجهد  
الذى لم يسمع به في امة من الامم" راجع : الجاحظ ، كتاب البخلاء ص ٩٣ ، ٩٨ ،  
١٠٦ ، ٢٠١ .
- (١) راجع المصدر السابق ، ص ٢٢٣ . واذا كان الكرم والضيافة خصلة عربية فسلان  
البخل قدر اهل مرو والاهواز من بني فارس وقدر للروم ايضا . انظر : البخلاء  
ص ١٣ ، ١٤٢ ، ١٢٨ .
- (٣) الجاحظ ، " كتاب الاخبار وكيف تصح " ، ص ٩٢ .
- (٤) كاستواء الام المعتبرة في التحلي بفضيلة الحنين الى الوطن . انظر الجاحظ في  
" رسالة في الحنين الى الاوطان " ، رسائل الجاحظ ، ٢ : ٤٠٧ ، واشترك الزنج  
مع العرب في التحلي بفضيلة الكرم . انظر الجاحظ ، " كتاب فخر السودان على  
البيضان " ، رسائل الجاحظ ، واشترك الترك والعرب في معاني الغرورسية  
والنجدة كما في " رسالة مناقب الترك " ، رسائل الجاحظ ، ١ : ٥ - ٨٦ .
- (٥) في الفصل الاخير من هذه الرسالة اشارة الى رأى الجاحظ في بعض المواطنين  
التي تساوت فيها العرب والعجم .

على الخلق قد قسم للعرب (١) دون حرمان سائر الامم منها وخاصة المعتبرة التي لم يخف الجاحظ اعجابه بها كما سنرى في حينه من الرسالة .

ويواصل الجاحظ تعميماته لظهار فضل العرب على غيرها فينسب الى صبيان العرب ونسائها وعوامها تفوقاً على نظرائها في سائر الامم . قال في ذلك :

" . . . . . وليس في الارض صبيان في عقول الرجال غير صبيانهم . . . . . واما العوام من اهل ملتنا ودعوتنا ولغتتنا وادبنا واخلاقنا فالطبقة التي عقولها فوق تلك الامم ولم يبلغوا منزلة الخاصة منا ، على ان الخاصة تتفاضل فسي طبقات ايضا . . . . . واذا كان نساء العرب في الجملة اعقل من رجال العجم فما ظنك بالمرأة منهم اذا كانت مقدّمة فيهم ؟ . . . . . " (٢)

ويوضح الجاحظ في موضع آخر ان للحظّ دورات بين الامم ، فهذه الخصال التي لصبيان العرب ونسائها ورجالها قد سبقهم اليها من اجري عليه الله الطلک والنبيوة من قبل . والعرب بدورها تفوق الامم نظرا لانها اصبحت تجمع الآن فضلي النبيوة والملك ، قال :

" . . . . . فقد علمنا ان العجم حين كان فيهم الطلک والنبيوة ، كانوا اشرف من العرب ، وان الله لما حول ذلك الى العرب صارت العرب اشرف منهم . " (٣)

ولا يعني ذلك ان الجاحظ يرى ان جميع افراد الجنس العربي يتمتعون بالخصائص الماثورة عن المجموع . قال : " وليس كل اعرابي شاعرا وقائفا . . . . . " (٤) . جل ما في الامر ان خصال العرب المذكورة اعم واتم ، وهي فيهم اظهر واكثر . " (٥)

- 
- (١) وذلك في مرحلة محددة من اطوار الامة ، هي مرحلة تمتعها بالملك والنبيوة . انها المرحلة التي سبقتها تلهمها الجاحظ ، التوحيدى ، في كتابه الانتاع " ايام النشأة " . انها مرحلة السيادة لدى الامة التي ينبغي تحرى حسناتها ومناقبها فيها دون غيرها من المراحل . انظر : التوحيدى ، الانتاع والموانسة ، تحقيق احمد امين واحمد الزين ( بيروت : دار مكتبة الحياة ) ١ : ٧٣ .
  - (٢) انظر : الجاحظ في " كتاب الاخبار وكيف تصحّ المجلة الآسيوية " ، ص ٩٣ ، وكتاب البيان والتبيين ١ : ١٣٧ ، وكتاب الحيوان ١ : ٢٨٦ .
  - (٣) الجاحظ " رسالة في النابتة " ، رسائل الجاحظ ٢ : ٢١ ، و " رسالة في حجج النبيوة " ، المصدر نفسه ، ٣ : ٢٤٥ ، حيث يذكر ان العرب للملك مسخرون .
  - (٤) الجاحظ ، " رسالة في مناقب الترك " ، رسائل الجاحظ ١ : ٧٣ .
  - (٥) المصدر نفسه .



باختصار ، ان العرب فاقت الام بسة البهان وخصائص اجتماعية وخلقية هياتها لاستقبال التنزيل . فزيادة الي كونها صاحبة " التعاير بالمثالب والتفاخر بالمناقب بالمشور المرسل بعد الموزون المعدل ، بلسان امضى من السنان وارفف من السيف الحسام ؛ (١) مع ما يعكسه ذلك من تهينة محكمة لارساء المجتمع الاسلامي ، فهي امسة اعتمدت " على حفظ الاميين الذين لا يتكلمون على الكتب المدونة والخطوط المطرسة ؛ (٢) مع ما يعكسه هذا القول من استعداد لحفظ التنزيل في الصدور . وقد اشار الجاحظ الي هذه النقطة التي تمت للعرب بقوله :

" . . . ان هذه العرب في جميع الناس كمقدار القرحة في جميع جسد الفرس . فلولا ان الله رقى عليهم ، فجعلهم في حاشية ، لطست هذه العجمان آثارهم . . . " (٣)

وفي هذا تأكيد لمقولته التي ترى ان يد الله تلازم جميع الخيرات المفاضة على خلقه ، " كحظ العربية " المقسوم للعرب ، ذي الوجة الثلاثة : البهاني والخلقي والاعلامي .

## ٢- ما تفضل به قريش العرب

تميزت قريش في نظر الجاحظ على غيرها من العرب بخصال معينة وذلك " تعبئة لها لكل جسم وترية لها لكل عظيم . " (٤)

من هذه الخصال اعتداد قريش باصلها وحسبها ، فاهلها " لقاح ولم توهج اتاوة قط ، ولم تطفها الطوك بالتمليك " (٥) كما لم يصبها في الجاهلية سباء . قال :

" . . . وما بانث به قريش من سائر العرب ، انا لم نر قريشيا انتسب الي قبيلة من قبائل العرب ، وقد رأينا في قبائل العرب الاشراف رجالا السى الساعة ينتسبون في قريش . . . وما بانث به قريش انها لم تلد في الجاهلية

(١) الجاحظ ، " رسالة في مناقب الترك " ، رسائل الجاحظ ، ٣ : ١٨٠ - ١٨١ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) الجاحظ ، البهان والتبيين ، ٢ : ٧٢ - ٧١ .

(٤) الجاحظ ، " كتاب في المعلمين " ، رسائل الجاحظ ، ٣ : ٤٦ .

(٥) الجاحظ ، " كتاب في الاوطان والبلدان " ، رسائل الجاحظ ، ٤ : ١٢٠ .

ولدا قط لغيرها . . . وما بانث به قريش من سائر العرب ان الله  
جا" بالاسلام وليس في ايدي جميع العرب سبية من جميع نساء قريش ،  
ولا وجدوا في جميع ايدي العرب ولدا من امرأة من قريش .- (١)

ومن هذه الخصال ايضا اتصاف قريش بالحماسة الدينية ، واستثنائها بخدمة  
البيت العتيق ، ما خولها سيادة القبائل وذلك لاجتماع الاخلاق والالفاظ والعقول  
والاحلام فيها ، الى جانب عدم مشاركتها العرب في شي\* من جفاتها او غلظ شهواتها .  
قال :

" . . . وما بانث به قريش من سائر العرب انها لم تكن تزوج احدا  
من اشراف العرب الا على ان يتحسس ، وكانوا يزوجون من غير ان يشترط  
عليهم : وهي عامر بن صعصعة وثقيف وخزاعة ، والحارث بن كعب ،  
وكانوا ديانين ، ولذلك تركوا الغزولما فيه من الغصب والغشم واستحلال  
الاموال والفروج . ومن العجب انهم مع تركهم الغزو ، كانوا امسز  
وامثل . . . ومن العجب ان كسبهم لما قل من قبل تركهم الغزو ، ومالوا  
الى الايلاف والجهاد ، لم يعترهم من بخل التجار قليل ولا كثير ، والبخل  
خلقة في الطباع ، فاعطوا الشعراء كما يعطي الملوك ، وقرروا الاضياف ، ووصلوا  
الارحام ، وقاموا بنوايب زوار البيت . . . ومن خصالهم انهم لم يشاركوا  
العرب والاعراب في شي\* من جفاتهم وغلظ شهواتهم ، وكانوا لا ياكلسون  
الضباب ولا شيئا من الحشرات ، الا ترى ان النبي - صلى الله عليه وسلم -  
اتوا خوانه بضب فقال : " ليس من طعام قومي " . . . وكانت العرب قاطبة  
ترد مكة في ايام الموسم ، وترد اسواق عكاظ وذا السجاز ، وتقيم هناك  
الايام الطوال ، فتعرف قريش ، لاجتماع الاخلاق لهم والشمايل والالفاظ ،  
والعقول والاحلام ، وهي وادعة وذلك قائم لها ، راهن عندها في كل عام ،  
تتلك عليهم فيقتسمونهم ، فتكون فظان للهيبة ، وينوع امر لكذا وتميم لكذا ،  
تغلبها المناسك وتقوم بجميع شأنها . . . واهل مكة حمن ولطاح لا يؤدون  
اتاة ، ولهم السقاية ، ودار الندوة ، والرفادة والسدانة .- (٢)

- 
- (١) الجاحظ ، المصدر نفسه ، ٤ : ١١٤ - ١١٥ . والقبائل المذكورة هي التسي  
حمستها قريش ( عدا ثقيف وخزاعة ) انظر المصدر نفسه ص ١٢٧ . والملاحظ  
ان الجاحظ في النص التالي استدرك مقولته الاخيرة حين قال : ان شرط التحسس  
الديني لرجال القبائل العربية بامكانه ان يسمح لهم الانتساب من قبيلة قريش .  
وهذا الاستثناء فاته في النص الاول المذكور .
- (٢) الجاحظ ، المصدر نفسه ، ٤ : ١١٥ - ١١٩ .

وما بانته به قريش سائر العرب اتصافها بالحظ الا وفر من الفصاحة قال :

"... قال النبي صلى الله عليه وسلم : "انا افصح العرب بيد اني من قريش ونشأت في بني سعد بن بكر". ولولم يكن ما عدنا من هؤلاء الاحياء الا قريش وحدها ، لكان فيها مستغنى عن غيرها . وكفاية عن من سواها ، لان قريشا افصح العرب لسانا وافضلها بهانا ، واحضرها جوايا ، واحسنها بديهة ، واجمعها عند الكلام قلبا . (١)

وقد عبر الجاحظ عن فضل قريش البهاني بقوله ايضا :

"... قال معاوية يوما : " من افصح الناس ؟ " فقال قائل : " قوم ارتفعوا عن لخلخانية العراق ، وتيامنوا عن عنعنة تميم وتياسروا عن كسكسة بكسر ، ليس لهم فمغمة قضاة ولا طمطمانية حبير . " قال : " من هم ؟ " قال : " قريش . . . . . " (٢)

وقد لاحظ الجاحظ ارتباطا بين فصاحة التنزيل القرآني وفصاحة الوسط القرشي الذي استقبله ، انسجاما مع نظرت العامة في هذا الشأن التي ترى تناسبا بين النبوة والوسط البشري الذي تنزل فيه قال :

- 
- (١) الجاحظ ، "رسالة في تفضيل النطق على الصمت" ، رسائل الجاحظ ، ٤ : ٢٣٨ و "في الاوطان والبلدان" ، المصدر نفسه ، ٤ : ١١٧ . واللاحظ اعلاه ان الجاحظ فهم كلمة "بيد" بمعنى "من اجل" . وهذا رأى ابن هشام (ت ١٣٦٠م) في مغني اللبيب عن كتب الاطريب ( دمشق : دار الفكر ، ١٩٦٤ ) ج ١ : ١٢٢ ، ورأى الزبيدي ( ١٧٣٢ - ١٧٩١م ) في تاج العروس ( مصر : المطبعة الخيرية ، ١٢٨١هـ ) ج ٢ : ٣٠٨ ورأى الفيروزبادي ( ١٣٢٩ - ١٤١٤م ) في القاموس المحيط ( القاهرة ، ١٢٨١هـ ) ج ١ : ٣٠٤ . والمصدران الاخيران اجازا ان تأتي بيد بمعنى "غير" ايضا . وقد حفلت المصادر اللغوية التالية بالانجاء الآخر لمعنى بيد . انظر ابن الاثير ( ١١٤٩ - ١٢١٠م ) في النهاية في غريب الحديث ( مصر : المطبعة العثمانية ، ١٣١١ ) ج ١ : ١٠٣ وابن منظور ( ١٢٣٢ - ١٣١١م ) في لسان العرب ( بيروت ، دار لسان العرب ) ج ١ : ٢٩٤ وكذلك الجوهرى ( ت ١٠٠٣م ) في الصاحح ( بيروت : دار العليسم للتراث ، ١٩٧٩ ) ج ٢ : ٤٥ وابن مالك في الالفية ( راجع قاموس Lane ، بيروت : مكتبة لبنان ، ١٩٦٨ ) ج ١ : ٢٨١ .
- (٢) الجاحظ ، البيان والتهيين ، ٣ : ٢١٢ - ٢١٣ .

"... ولما كان اعجب الامور عند قوم فرعون السحر... بعث الله موسى عليه السلام على ابطاله وتوحيته وكشف ضعفه واطهاره... وكذلك زمن عيسى عليه السلام كان الاغلب على اهله وطى خاصة عطاءه الطب فارسله تعالى باحيا الموتى ان كانت ظاهتهم علاج المرضى... وكذلك دهر محمد صلى الله عليه وسلم كان اغلب الامور عليهم، واحسنها عندهم، واجلها في صدورهم، وحسن الهيان ونظم ضروب الكلام، مع علمهم له، وانفرادهم به. فحين شاعت البلافة فيهم، وكثر شعراؤهم وفساق الناس خطباؤهم، بعث الله عز وجل، فتحداهم بما كانوا لا يشكون انهم يقدرون على اكثر منه... فمن احكم الحكمة ارسال كل نبي بما يفهم اعجب الامور عندهم ويبطل اقوى الاشياء في ظنهم." (١)

وما بانته به قريش العرب، ممارستها التجارة بطريقة مغايرة لسلوك تجار العالم آنذاك. فعلى الرغم ان قريشا كانت تسكن بواد غير زى زرع، وتحمل مشقات التجارة فان ذلك لم يزد لها الا جودا وكروما. قال الجاحظ:

"... وليس قولهم: قرشي لقولهم: هاشمي وزهري وتيمي؛ ولكنه اسم اشتق لهم من التجارة والتقريش، فهو افخم اسمائهم واشرف انسابهم، وهو الاسم الذي نوه الله تعالى به في كتابه (٢)... فلما تركوا الغزو لم تبق مكسبة سوى التجارة، فضربوا في البلاد الى قيصر بالروم، والى النجاشي بالحيشة، والى القوقس بمصر، وصاروا باجمعهم تجارا خلطا. وقد تعجب الناس من ثبات قريش وجزالة عطايهاهم واحتمالهم المؤن الغلاظ في دوام كسبهم من التجارة. فكان في ثبات جودهم العالي على جود الاجواد وهم قوم لا كسب لهم الا من التجارة عجب من العجب... فلوانه كان معهم من الفضل ما يبهر العقول ومن المجد ما تخرج فيه العيون، لما اصلح طبائعهم الشيء الذي يفسد جميع الامة... فلما كانوا بواد غير زى زرع ويحتاجون الى الاقوات، واقامة القرى، لم يجدوا بدا من ان يتكلفوا ما يعيشهم ويصلح شأنهم، فاخذوا الايلاف (٣) ورحلوا

(١) الجاحظ، "رسالة في حجج النبوة"، رسائل الجاحظ، ٣، ٢٧٨-٢٨٠.

(٢) انظر سورة قريش.

(٣) الايلاف المذكور هو الذمام والعهد والاجارة. كان الاخوة الاربعة هاشم وعبد شمس والمطلب ونوفل، بنو عبد مناف، يقيمون قريشا. اما هاشم فانه اخذ حبلا من ملك الروم واخذ نوفل حبلا من كسرى واخذ عبد شمس حبلا من النجاشي =

الى الملوك بالتجارات . (١)

اي ان التجارة آنذاك لم تخل من مشقة وكانت تعرض صاحبها للمذلة \* فان  
التاجر قد استشعر الذل وتغشى ثوب المذلة \* (٢) وقد آتت التجارة - كما حدث  
مع تجار الابلّة ومحتكرى اهل الحيرة الى ان ثلثت في اعراضهم وانتهكت من مروااتهم ،  
ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث لتجار قريش . فالتجارة اورثت في نفوس القرشيين من  
السعة بقدر ما اورثت معاصريهم من الضيق . قال الجاحظ في ذلك :

" . . . ولو كانت علتهم في ذلك كعلة تجار الابلّة ، ومحتكرى اهل الحيرة ،  
ثلثت دقة التجارة في اعراضهم ، ولنهك سخف التريخ من مروااتهم ،  
ولصغر ذلك من اقدارهم في صدور العرب ، ولوضع من علوهم عند اهسل  
الشرق . وكيف وقد ارتحلت المهيم الشعراء كما ارتحلت الى الملوك العظام ،  
فأسنوا لهم العطية ، ولم يقصروا عن غاية ، فسقوا الحبيج واقاموا القسرى  
لزوار الله تعالى ، وهم بواد غير ذي زرع . . . ولقد اورث ذلك صدورهم  
من السعة بقدر ما اورث غيرهم من الضيق . ومن قاس تجار الكرخ وباعته ،  
وتجار الاهواز والبصرة ، على تجار قريش ، فقد اخطأ مواضع القياس وجهل  
اقدار العلل . فانظر كم بين علتهم وعلة غيرهم . . . ومن العجب ان كسبهم  
لما قل من قبل تركهم الغزو ، ومالوا الى الايلاف والجهاد ، لم يعترهم  
من بخل التجار قليل ولا كثير ، والبخل طقة في الطباع . . . (٣)

وانسجاماً مع نظرة الجاحظ التي ترى تناسبا بين النبوة والوسط البشري الذي  
استقبلها ، لاحظ الجاحظ ان النبي محمداً قد مارس التجارة الشائعة بين قومه

---

واخذ المطلب حبلا من ملوك حمير . فكان تجار قريش يختلفون الى هذه الامصار  
بحبال هو لا اخواة ، فلا يتعرض لهم . انظر الجاحظ ، كتاب في المعلسين ،  
رسائل الجاحظ ، ٤٧ : ٣ .

(١) انظر الجاحظ ، رسالة في مدح التجارة ، "رسائل الجاحظ" ، ٤ : ٢٥٦ ، كتاب  
في الاوطان والبلدان ، "المصدر نفسه" ، ٤ : ١١٦ ، ١٢٦ ، ١٢٧ . وكتاب في  
المعلسين ، "المصدر نفسه" ، ٣ : ٤٦ .

(٢) الجاحظ ، كتاب في المعلسين ، "رسائل الجاحظ" ، ٣ : ٤٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ٣ : ٤٥-٤٧ ، وكتاب الاوطان والبلدان ، "المصدر نفسه" ، ٤ : ١١٦ .

از " شخص فيها مسافرا ، وباع واشترى حاضرا ، " (١) قال :

" . . . وقد علم المسلمون ان خيرة الله تعالى من خلقه ، وصفية حسن عبادته ، والموتى على وحيه ، من اهل بيت التجارة ، وهي معولهمهم وعليها معتد بهم ، وهي صناعة سلفهم ، وسيرة خلفهم ، وقد بلغتك بسالتهم ، ووصفت لك جلادتهم ، ونعتت لك احلامهم ، وتقرر لك سخاؤهم وضيافتهم ، وبذلهم ومواساتهم . وبالتجارة كانوا يعرفون . ولذلك قالت كاهنة اليمين : " لله درّ الديار ، لقريش التجار . . . " وقد غير النبي برهة من دهره تاجرا . . . ولشهرة امره في البيع والشراء قال الشركون : ( ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الاسواق ) ، (٢) فاوحى الله اليه : ( وما ارسلنا قبلك من المرسلين الا انهم ليأكلون الطعام ويمشون في الاسواق . ) (٣) فاخبر ان الانبياء قبله كانت لهم صناعات وتجارات (٤)

هكذا فضلت قريش سائر قبائل العرب باصلها وحسبها وحماستها وفماحتها وسارستها التجارة بسخا ، مع حسن ضيافة القبائل العربية التي كانت تقربها بالسيادة عليهم اثنا ، خدتها البيت العتيق .

٣ - ما يفضل به الهاشميون سائر قريش :

يلاحظ الدارس توزيع الخصال التي فضل بها الهاشميون القرشيين ، على فترات ثلاث : الفترة السابقة للنبوّة ، والفترة المعاصرة لها ، والفترة التي تلتها على عصر الجاحظ .

(أ) - فضل الهاشميين في الجاهلية :

١ - فضل هاشم على بقية بني عبد مناف في الجاهلية :

من بني عبد مناف (٥) الاربعة ، المطلب ونوفل وعبد شمس وهاشم ، فضل الاخير سائر اخوته واليه تعود نسبة " هاشمي " او لفظ " الهاشميين " لكونه الجد الاعلى للنبي محمد . فهاشم هو والد عبد المطلب ، الجد المباشر لمحمد . وقد رأى الجاحظ ان خصلة من خصال الخير لم تكن اغلب او اظهر من اختها في نفس هاشم . قال :

(١) الجاحظ ، " رسالة في مدح التجارة " ، رسائل الجاحظ ، ٤ : ٢٥٦ .

(٢) الفرقان : ٢ .

(٣) الفرقان : ٢٠ .

(٤) الجاحظ ، " رسالة في مدح التجارة " ، رسائل الجاحظ ، ٤ : ٢٥٥ - ٢٥٧ .

(٥) عبد مناف بن قصي والد هاشم . انظر ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ، تحقيق ليفي بروفنسال (مصر : دار المعارف ، ١٩٤٨) ص ١٢ .

"... ولذلك قالوا : "احلم من الاحنف وما هو الا في حلم معاوية" ولم يقولوا : "هو احلم من هاشم" لان خصاله متساوية ، وخلال مشرفة متوازية ، وكلها كان غالبا ظاهرا وقاترا غامرا ، وبعد فمن يستطيع ان يصف هاشما بالحلم دون غيره من الاخلاق والافعال حتى يخصه به دون كل شي" فيه من الفضل ؟" (١)

وقد فضل هاشم اخوته حين سبقهم الى اخذ الايلاف لقريش . والايلاف هو ذلك العهد او الامان الذي يوفر حرية التحرك التجاري لقبيلة قريش (٢) . ولا يعني ذلك ان اخوة هاشم لم يكن لهم حظ فيه ، فهم جميعا "اصحاب الايلاف" (٣) الا ان هاشما له فضل السبق والبادرة . قال الجاحظ :

"... لقد اجمعت الرواة على ان اول من اخذ الايلاف لقريش هاشم ابن عبد مناف . فلما مات ، قام اخوه المطلب مقامه ، فلما مات ، قام عبد شمس مقامه ، فلما مات ، قام نوفل مقامه ، وكان اصغرهم . والايلاف هو ان هاشما كان رجلا كثيرا السفر والتجارة ، فكان يسافر في الشتاء الى اليمن ، وفي الصيف الى الشام ، وشرك في تجارته رؤساء القبائل من العرب ومن ملوك اليمن ، نحو العباهلة باليمن واليكسوم من بلاد الحبشة ونحو ملوك الروم بالشام ، فجعل لهم معه ربحا فيما يربح وساق لهم ابلات مع ابله . فكفاهم مؤونة الاسفار على ان يكفوه مؤونة الاعداء في طريقته ومنصرفه ، فكان في ذلك صلاح عام للفريقين ، وكان المقيم رابحا والسافر محفوظا . فاخصبت قريش بذلك وحملت معه اموالها . واتاها الخير من البلاد السافلة والعالية وحسنت حالها وطاب عيشها . قال ابو عثمان : وقبيل ان تفسير قوله تعالى : " وآمنهم من خوف " هو خوف من كان هو "الاخوة" يبرون به من القبائل والاعداء وهم مغتربون ومعهم الاموال . . . وقد فسره قوم بغير ذلك . . . وكيفما كان الايلاف ، فان هاشما كان القائم به دون غيره من اخوته . (٤)

(١) الجاحظ ، كتاب الحيوان ٢٤ : ٩٢ ، وكتاب " فضل هاشم على عبد شمس " ، رسائل

الجاحظ ( تحقيق حسن السندوي ) ص ١٠٤ .

(٢) انظر : Encyclopaedia of Islam, new ed., s.v. "Ilāf," by Ed.

حيث يرد ان الايلاف الذي حققه هاشم ، تم مع امبراطور الروم لحماية قافلته الى سوريا وذلك سنة ٤٦٧ م .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) كتاب " فضل هاشم على عبد شمس " ، رسائل الجاحظ ( تحقيق السندوي ) ص ٧٠-٧١ .

والاشارة الثانية لهاشم واخوته في الجاهلية نجدها في المصدر نفسه ، ص ١١٤ ، تضع ذرية بني عبد شمس وبني نوفل في مقدمة من عادى النبي ورسالته مع ان عبد شمس توأم هاشم . انظر جمهرة النسب ، ص ١٢ .

ومن الفضل المأثور لهاشم قيامه بالرفادة والسقاية اى توفير الطعام والماء  
لزوار البيت . وقد عرف باسمه اثر تهشيم الطعام لهم دون سائر قومه من اهل مكة ، قال :  
(والشمر لابن الزبيرى )  
كانت قريش بيضة فتفلقت  
فالمح خالصه لعبد مناف  
الرائشون وليس يوجد رائش  
والقائلون هلم للاضياف  
عمرو العلى وهشم الشريد لقومه  
ورجال مكة سنتون عجاف (١)

## ٢ - فضل عبد السطلب بن هاشم على سائر اخوته في الجاهلية

ثلما فضل هاشم اخوته من بني عبد مناف ، فضل عبد السطلب بن هاشم سائر  
اخوته وهم: أسد ونضلة وابوصيفى (٢) . ولم يعن الجاحظ في جميع كتاباته بالاشارة  
اليهم ، باستثناء فضل التصاهر الكائن لفاطمة بنت اسد بن هاشم مع ابي طالب بن عبد السطلب  
ابن هاشم ، مما جعلها أمًا لجميع نسل ابي طالب (٣) .

وقد استقطب عبد السطلب بن هاشم قدرا كبيرا من الفضل الذى حظي به والده ،  
دون سائر بني هاشم والقرشيين والعرب وذلك لتمتعه بطائفة من الخصال عدها  
الجاحظ ، "ارهاصا لنبوته النبى محمد وتأسيسا لما يريد الله به من الكرامة" (٤) قال  
الجاحظ في الخصال التى فضل بها عبد السطلب ، جد النبى ، سائر قريش تحقيقا  
للغاية المذكورة التى كانت قريش تهيبا لها :

"... وعبد السطلب سيد الوادى غير مدافع ، واجمل الناس جمالا  
واظهرهم جودا واكملهم كمالا . فهو صاحب الغيل والطير الا باهليل ،  
صاحب زمزم وساقى الحجيج ... والشرف يتفاضل ، وقد اعطى الله

(١) كتاب " فضل هاشم على عبد شمس " ، رسائل الجاحظ ، ص ٦٨ .

(٢) ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ، ص ١٣ .

(٣) الجاحظ ، " من كتابه في الاوطان والبلدان " ، رسائل الجاحظ ، ٤٠ : ١٢٢ . وكتاب

" فضل هاشم على عبد شمس " ، المصدر نفسه ( تحقيق السندوي ) ص ١٠٩ .

(٤) انظر الجاحظ ، كتاب " فضل هاشم على عبد شمس " ، رسائل الجاحظ ، ( تحقيق

السندوي ) ، ص ٦٩ - ٧٠ .



عبد المطلب في زمانه ، واجرى على يديه واطهر من كرامته ما لا يعرف مثله الا لنبي مرسل ، وان في كلامه لابرهة صاحب الفيل (١) وتوعده اياه برب الكعبة ، وتحقيق قوله من الله ونصرة وعيده بحبس الفيل ، وقتل اصحابه بالطير الا باهبل وحجارة السجيل حتى تركوا كالعصف المأكول ، لاعجب البرهانات واسنى الكرامات ، وانما كان ذلك ارهاصا لنبوته النبي صلى الله عليه وسلم وتأسيسا لما يريد الله به من الكرامة . (٢)

ومثلا كانت خصال الخير مفاضة على والده هاشم بشكل متوازن ، كذلك هسي الآن مع عبد المطلب الذي اصبح " سيد الوادي " . قال الجاحظ :

" . . . لم يكن لعبد المطلب في قريش نظير ، كما انه ليس لقريش في العرب نظير ، وكما انه ليس للعرب في الناس نظير . فعبد المطلب لم تكن فيه خصلة اغلب من اختها ، وتكاملت فيه وتساوت وتوافقت اليه . فقالوا عند ذلك : " سيد الوادي " و " سيد قريش " ، واذا قالوا : " سيد قريش " ، فقد قالوا : " سيد العرب " ، واذا قالوا : " سيد العرب " ، فقد قالوا : " سيد الناس " ! (٣)

ان خصال عبد المطلب هذه ، لم تدفعه الى الكبر وفي هذا فضل لا ينكر :  
" . . . ولم يدع الرهبية ملك قط الا فرعون . . . ولا كان فوق السلوك الاعاظم والجله الا كابر ، بل دين كثير منهم في الحسب وشرف الملك وكرم الرعية . ولو كان الكبر فضيلة ، وفي التيه مروءة ، لما رغب عنه بنو هاشم ، وكان عبد المطلب اولى الناس منه بالغاية واحقهم باقص النهاية . " (٤)

---

(١) حسب النقوشات الحميرية ، ابرهة هو عبد لتاجر يمزنطي حكم جنوبي الجزيرة العربية بعد ان قام بثورة ضد قائده المعين من قبل ملك الحبشة ، وذلك قبل سنة ٥٣١ م . لكن المصادر الاسلامية كالطبري وابن هشام نسبت اليه قيادته لحملة ضد مكة بهدف جعل كنيسة صنعا محطة للحجاج عوضا عن مكة وذلك سنة مولد النبي محمد عام ٥٧٠ م - انظر :

*Encyclopaedia of Islam, new ed., s.v. "Abraha," by A.F. Beeston.*

(٢) الجاحظ ، " كتاب فضل هاشم على عبد شمس " ، رسائل الجاحظ ، تحقيق السند وبني ، ص ٦٩ - ٧٠ .

(٣) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٢ : ٢٤٥ - ٢٤٦ .

(٤) الجاحظ ، " رسالة في النهل وذم الكبر " ، رسائل الجاحظ ، ج ٤ : ١٨٣ .

٣ - فضل بني عبد المطلب على قريش في الجاهلية :

وقد رأى الجاحظ ان مساهمة الزبير بن عبد المطلب ، عم النبي ، في الدعوة الى تأسيس حلف الفضول<sup>(١)</sup> والمشاركة فيه ، التي فاقت مساهمة غيره من بطون قريش من شهد الحلف ولم يقم بأمره ، من ابرز سمات الفضل التاريخي المستحق لبني هاشم - اي ذرية عبد المطلب - قبل الاسلام :

"... وهو هاشم هم الذين سموا ذلك الحلف "حلف الفضول" وهم كانوا سببه والقائمين به دون جميع القبائل العاقدة له والشاهدة لأمه . فما ظنك بمن شهدته ولم يقم بأمره ؟ وهو اشرف حلف كان فسي العرب كلها ، واكرم عقد عقده قريش في قديمها وحدثها قبل الاسلام . ولفضل ذلك الحلف وفضل اهله ، سمي حلف الفضول . فكان هذا الحلف في بني هاشم ، وبني المطلب ، وبني اسد بن عبد العزى ، وبني زهرة وبني تميم ابن مرة ، تعاقدوا في شهر حرام قياما يتناسحون باكفهم ليكون مع المظلوم حتى يولدوا اليه حقه ، ما بل بحر صوفة ، وفي التآسي في المعاش والتساهم بالمال ، يمنعون القوى من ظلم الضعيف ، والقاطن من عنف الغريب . قال الزبير بن عبد المطلب الذي نهض فيه ودعا اليه وحث عليه وهو الذي سماه "حلف الفضول" :

وان كنا جميعا اهل دار  
يعزبه الغريب لدى الجوار  
اباة الضيم نهجر كل عار<sup>(٣)</sup>

حلفت لنعقدن حلفا عليهم  
نسميه الفضول اذا عقدنا  
ويعلم من يطوف البيت انا

(١) فيما يتعلق بنواعث تأسيسه راجع :

Encyclopaedia of Islam, new ed., s.v. "Ḥilf al Fuḍūl," by Charles Pellat.

وفيه يذكر ان حلف الفضول كان تقليدا شائعا في بني جرهم لاجيال عديدة وان الزبير بن عبد المطلب عدده نوعا من الفروسية والنبل بعد حروب الفجار التي سبقت .

(٢)

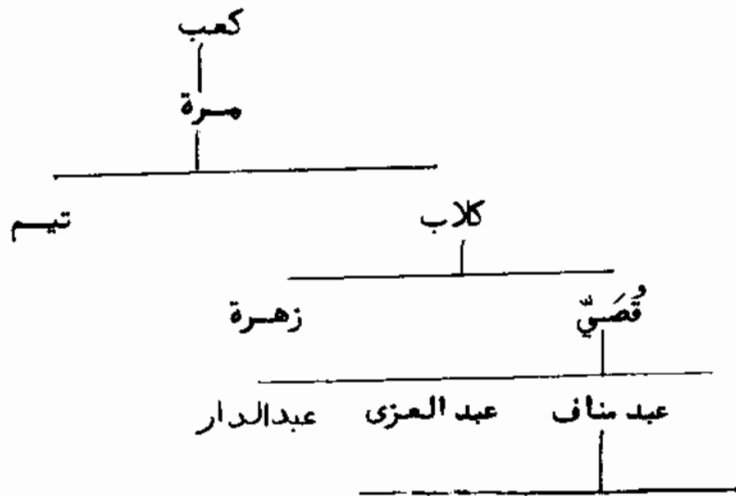
الاسماء المذكورة هي من اشهر بطون قريش . فبني المطلب هم اولاد عم لبني هاشم ، انظر ابن حزم ، الجمهرة ، ص ٦٥-٦٦ . واما بني اسد بن عبد العزى فهم اولاد عم لبني عبد مناف ( المصدر نفسه : ١٠٨ ) . اما بني زهرة فيعود نسبهم الى زهرة اخي قصي ، الجد المباشر لعبد مناف وعبد العزى وعبد الدار . ( المصدر نفسه : ١١٩-١٢٦ ) . واما بني تميم بن مرة فيرتقون في نسبهم الى مرة بن كعب ، الجد الاعلى لكلاب ، والد قصي وزهرة ، وهما جدا لبني هاشم . ( المصدر نفسه : ١٢٦-١٣١ ) وانظر الصورة : =

وقد خص الجاحظ الزبير بن عبد المطلب ، الذي دعا الى حلف الفضول ،  
بالشجاعة والجرود واستشهد بأبيات له يقول فيها :

ولولا الحس لم يلبس رجال	ثياب اعزة حتى يموتوا
ثيابهم شمال او عيبا	بها دنس كما دنس الحميت
ولكننا خلقنا اذا خلقنا	لنا الحبرات والمسك الفتيت
وكأس لو تبين لهم كلامنا	لقاتلنا لهم سسميت
تبين لنا القذى ان كان فيها	رصين الحلم يشربها هببت
ويقطع نخوة المختال عنا	رقاق الحد ضربته صوت
بكف مجرب لا عيب فيه	اذا لقي الكريهة يستميت (١)

وانسجاما مع عادة العرب في التعالي على مصائبها ، فان ابا طالب بن عبد المطلب حين  
عثره بعض نساءه بالعرج ، اكد على ان ذلك لا ينقص من تدبير ولا يمنع من سوؤه . قال :

(=)



هاشم عبد شمس المطلب نوفل

عبد المطلب اسد  
عبد الله ابوطالب فاطمة  
محمد علي

(=) راجع الجاحظ ، "كتاب فضل هاشم على عبد شمس" ، رسائل الجاحظ ، ( السندوبي )

ص ٧١ - ٧٢ .

(١) الجاحظ ، كتاب فضل هاشم على عبد شمس ، رسائل الجاحظ ، تحقيق السندوبي ، ص ٧٣ .

قالت عرجتُ فقد عرجتُ فما الذي  
وانا ابن بجدتها وفي صيا بها  
ادع الرفاحة لا اريد نساءها  
واكف سهبي عن وجوه جملة

انكرت من جلدي وحسن فعالي؟  
وسليل كل مسود مفضال  
كيما افيد رقائق الاموال  
حتى تصيب مقاتل البخال (١)

اما صورة سائر ابنا عبد المطلب قبل الاسلام فيعكسها قول الجاحظ :  
" . . . وكما روى الناس ، ان عبد المطلب ولد عشرة (٢) . . . وان عامر  
ابن مالك لما رآهم يطوفون بالبيت كأنهم جمال جون ، قال : " بهؤلاء  
تنزع مكة وتشرف مكة . " (٣)

### ( ب ) فضل بني هاشم في الاسلام

لعله اصبح واضحا ان لفظ " بني هاشم " الذي حفلت به آثار الجاحظ ، يقصد به  
ذرية عبد المطلب الذي استأثر بالفضل الهاشمي الذي شاع من بعده في معظم  
ذريته ، وبالتحديد في النبي محمد وآل ابي طالب وآل العباس . قال :  
" وليس على ظهر الارض هاشمي الا من ولد عبد المطلب بن هاشم (٤)  
وان اول ما فضّل به بنو هاشم سائر قريش ، هو النبوة . قال الجاحظ :  
" . . . ونحن ذاكرون - وبالله التوفيق - الخصال التي بانها بها  
بنو هاشم دون قريش . فاول ذلك النبوة ، التي هي جماع خصال الخير ،  
واعلاها وافضلها ، واجلها واسناها . " (٥)

- 
- (١) الجاحظ ، كتاب البرصان والعرجان والعميان والحولان ، تحقيق مرسي الخولي  
( القاهرة : دار الاعتصام ، ١٩٧٢ ) ص ١٨١ .
  - (٢) فضلا عن الزبير بن عبد المطلب ، هناك عبد الله والد النبي ، وحمة وابوطالمسب  
والعباس والحارث والمقوم وعبد العزى المعروف بابي لهب . راجع ابن حزم ،  
جمهرة انساب العرب ، ص ١٣ .
  - (٣) الجاحظ ، " كتاب فضل هاشم على عبد شمس ، " رسائل الجاحظ ، تحقيق  
السندوي ، ص ١٠٨ .
  - (٤) الجاحظ ، " كتاب فضل هاشم على عبد شمس ، " رسائل الجاحظ ، تحقيق السندوي ،  
ص ٨٤ .
  - (٥) الجاحظ ، " كتاب الاوطان والبلدان ، " رسائل الجاحظ ، ص ١٢١ .

وقد منحت النبوة بني هاشم فضلاً تاريخياً تحقق لكل من ساهم مع النبي وآله  
في دعوته ورسالته :

"... والصديق من صدقهم ، والفاروق من فرق بين الحق والباطل  
فيهم ، والحواري حواريهم ... ولاخير الا فيهم ، ولهم ، ومنهم ،  
ومعهم . والنجدة والخير فيهم ، والا نصار انصارهم ، والسهاجر من هاجر  
اليهم ومعهم ... " (١)

والمعنى بهذا الفضل مباشرة من بني عبد مناف : بنو هاشم وبنو المطلب وبنو بني  
عبد شمس وبنو نوفل الذين ابطأوا عن الاسلام واهله ، فامتنع الفضل عنهم :

"... قد علم الناس ان عبد مناف ولد اربعة : هاشما والمطلب  
وعبد شمس ونوفلا . وان هاشما والمطلب كانا يدا واحدة ، وان عبد شمس  
ونوفلا كانا يدا واحدة . وكان ما ابطأ ببني نوفل عن الاسلام ابطأ اخوتهم  
من بني عبد شمس ، وكان ما حث ببني المطلب على الاسلام فضل محبتهم  
لبني هاشم ، لان امر النبي كان بيننا وانما كانوا يمتنعون عنه من طريق  
الحسد والبغضة ... " (٢)

وحين يشهد الجاحظ بفضل بني هاشم في الاسلام ، يلاحظ ان فرضي البيهقي  
الهاشمي - الطالب والعباسي - متساويان في ذلك الفضل ، نظراً لما قدما من العزائم  
التامة والاروات السمكة (٣) في الجود والرأى والعبادة والفقه والنجدة والجمال وسجاجة  
الخلق . قال الجاحظ في ذلك :

"... وليس على ظهر الارض جواد جاهلي ولا اسلامي ولا عربي ولا عجمي  
الا وجوده يكار يصير بخلا اذا ذكر جود علي بن ابي طالب ، وعبد الله  
ابن جعفر بن ابي طالب ، وعبد الله بن العباس بن عبد المطلب . وان كان  
الفخر والفضل في الجود والسماح ، فمن مثل هؤلاء في فضلهم ؟ اما  
المنطق والخطب فقد علم الناس كيف كان علي بن ابي طالب عند التفكير

- 
- (١) الجاحظ ، رسالة في تفضيل بني هاشم على من سواهم ، مجلة لغة العرب ، ٤١٥ .  
(٢) الجاحظ ، كتاب " فضل هاشم على عبد شمس ، رسائل الجاحظ ، تحقيق السندوي ،  
ص ١١٣ - ١١٤ .  
(٣) الجاحظ ، " رسالة تفضيل بني هاشم على من سواهم " ، مجلة لغة العرب ، ص ٤١٨ .  
ونص الرسالة نفسها نشره الدكتور محمد طه الحاجري في مجموع رسائل الجاحظ ،  
( بيروت : دار النهضة العربية ، ١٩٨٣ . )

والتعبير ، وعند الارتجال والبديهة ؛ وعند الاطناب والابجاز فسي  
وقتيهما ، وكيف كان كلامه قاعدا وقائما . وكيف كان عبدالله بن العباس  
- رضوان الله عليه - الذي كان يقال له الحبر والبحر . وان كان الفخر  
ينهل الرأى وصواب القول ، فمن مثل عباس بن عبدالمطلب ، وعبد الله  
ابن العباس ؟ ويزهد علي بن ابي طالب ودينه يضرب الشل . وان عددتم  
النسك من غير الطوك ، فابن انتم من علي بن الحسين زين العابدين ،  
الذي كان يقال له علي الخير وعلي العابد . وابن انتم عن علي بن عبدالله  
بن العباس ؟ . . . وابن انتم عن موسى بن جعفر  
بن محمد ؟ . . . وكان علي بن الحسين بن علي ، وعلي بن عبدالله بن جعفر ، وعلي  
ابن عبدالله بن العباس ، عليهم السلام يصلون في كل ليلة الف ركعة ،  
مع العلم والعلم وكظم الغيظ والصفح الجميل والاجتهاد السبرز . فلوان  
خصلة من هذه الخصال او داعية من هذه الدواعي عرضت لغيرهم لهلاك  
واهلك . واعلم انهم لم يمتحنوا بهذه السحن ولم يتحملوا هذه الهلوى ، الا  
لما قدموا من العزائم التامة والادوات السمكة ، ولم يكن الله ليزيدهم في  
السحنة ، الا وهم يزدادون على شدة السحن ، خيرا وعلى التكشف ، تهذيبا  
. . . واما الفقه والعلم والتفسير والتأويل ، فان ذكرتموه لم يكن لكم فيه  
احد مثل علي بن ابي طالب ، وعبد الله بن العباس ، وزيد ومحمد ، ابني  
علي بن الحسين بن علي ، وجعفر بن محمد ، الذي ملأ الدنيا علمه  
وفقهه . ويقال ان ابا حنيفة من تلامذته . ومن مثل علي بن ابي طالب في  
النجدة واليسالة والشجاعة ؟ وقد وقع اتفاق اوليائه واعداه على انسه  
اشجع البشر . ومن مثل حمزة بن عبد المطلب اسد الله واسد رسوله  
ومن مثل الحسين بن علي ؟ . . . ومن لكم مثل محمد وابراهيم ابني عبدالله ؟  
. . . وان كان الشرف والفخر في الجمال ، والكمال والبسطة في الجسم  
وتمام القوام ، فمن كان كالعباس بن عبد المطلب ؟ ومن مثل علي بن محمد  
الله بن العباس وولده ؟ وكان الحسن بن علي اصبح الناس وجها . كان  
يشبه برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكذلك عبدالله بن الحسين  
المحض . اما الحسن بن علي ابن ابي طالب ، فاشبه الناس برسول الله  
خلقا وخلقا . وان كان الفخر بالبشر وطلاقة الوجة وسجاجة الاخلاق  
فمن مثل علي بن ابي طالب ؟ وما خسر به آل ابي طالب من الفضائل  
ان اول هاشمي ، هاشمي الابوين كان في الدنيا ولد لابي طالب : لان  
اباهم عبد مناف ، وهو ابو طالب بن شيبه وهو عبد المطلب بن هاشم وهو  
عمرو وهو ابو شيبه . . . (١)

( ج ) فضل بني هاشم عصر الجاحظ

ويبدو ان فضل بني هاشم على سائر العرب مستمر في جميع العصور بما فيه عصر الجاحظ . قال :

"... ثم ليس في الارض احسن اخلاقا ولا اطهر بشرا ولا ادوم دماثة ولا ألين عريكة ولا اطيب عشيرة ولا ابعد من كبر منهم . والحدة لا يكسار يعدمها الحجازي والتهاشي . الا ان حلبيهم لا يشق غباره ، وذلك في الخاص . والجمهور على خلاف ذلك حتى تصير الى بني هاشم . فالحلم في جمهورهم وذلك يوجد في الناس كافة ولكننا نضمن انهم اتم الناس فضلا واقلهم نقما وفيهم مع فرط جودهم وظهور عزهم من البشر الحسن والاحتمال وكرم التفاضل ما لا يوجد مع البخيل الموسر والذليل المتكسر اللذين يجعلان البشر وقاية دون العال . وهم في كل اوقاتهم وجميع اعمارهم فوق من هم ، على مثل ميلادهم في الهيئة الحسنة والروية الظاهرة والاخلاق المرضية . وليس في الارض قوم انطق خطيبا ولا اكثر بليغا ممن غير تكلف من بني هاشم". (١)

وللجاحظ رأى اضافي في معاصره من بني هاشم يعكس فيه مفهومه لاثر البيهشة الجغرافية على الشكل والخلق . قال :

---

( = ) انظر : الجاحظ ، "رسالة تفضيل بني هاشم على من سواهم" ، مجلة لفيسة العرب ، ص ٤١٨ و ٤١٩ . وكتاب "فضل هاشم على عبد شمس" ، رسائل الجاحظ ، ( السندوبي ) ص ٨٢ - ٨٤ ، ٨٧ ، ١٠٥ ، ١٠٧ - ١١٠ ، ١١٥ ، و"كتاب الاوطان والبلدان" في رسائل الجاحظ ، ج ٤ : ١٢٢ . والاشارة الاخيرة في النص

اشارة الى التصاهر الذي تم بين ابي طالب بن عبدالمطلب بن هاشم وفاطمة ابنة اسد بن هاشم ، مما جعل فاطمة اما لجميع ولد ابي طالب : طالب وجعفر ومقيل وعلي . قال الجاحظ في هذا المعنى : " من يستطيع ان يسامى رجالا ولدهم هاشم مرتين ، من قبل ابيهم ومن قبل امهم ؟ "

. انظر : الجاحظ ، " كتاب فضل هاشم على عبد شمس ،

رسائل الجاحظ ، تحقيق السندوبي ، ص ١٠٩ .

(١) الجاحظ ، "رسالة في تفضيل بني هاشم على من سواهم" ، مجلة لغة العرب ، ص ٤١٧

وقد علمنا ان لجماعة بني هاشم طابعا في وجوههم يستبين به كرم العتسق  
وكرم النجار ، وليس ذلك لغيرهم . ولقد كادت الاهواز تفسد هذا المعنى  
على هاشمية الاهواز . ولولا ان الله غالب على امره ، لقد كادت طمست  
على ذلك المعتق ومحتة... (١)

بهذه الصفات المذكورة لبني هاشم ، السهيفة والرافقة لنبوة محمد ، اصبح بنو  
هاشم كما يقول الجاحظ :

"... موضع العذار من خد الفرس ، والعقد من لبة الكعب ، والجوهر  
المكنون ، والذهب المصفى ، وموضع المحة من البيضة ، والعين مسن  
الرأس ، والروح من البدن . وهم الانف المقدم والسنام الاكبر ، والدررة  
الزهراء ، والروضة الخضراء ، والذهب الاحمر... (٢)

بيد انه لم يفت الجاحظ الاشارة الى ان هؤلاء القوم ، كجميع البشر ، يخطون  
ويصيبون ، الا ان حظهم من النقص دون حظ سائر البشر . قال :

"... ثم لا تجد عند افسدهم شيئا من المنكر ، الا رأيت في غيره مسن  
الناس اكثر منه من شايع القبائل وجمهور العشائر... (٣)

#### ٤- ما يفضل به محمد العالمين

رأى الجاحظ ان فضل محمد على العالمين يأتي من كونه قد "بعث من خيرة  
قريش... (٤) فيها ان بني هاشم افضل قريش ، وقريش افضل العرب ، والعرب افضل الامم ،  
فان محمدا بالتالي يفضل العالمين . وتفسير ذلك لديي ان محمدا خُصَّ

(١) الجاحظ ، "كتاب الاوطان والبلدان" ، رسائل الجاحظ ، ج ٤ : ١٣٥-١٣٦ .

(٢) انظر : الجاحظ ، "رسالة مناقب الترك" ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ١٣ .

(٣) انظر : "رسالة في تفضيل بني هاشم على من سواهم" ، مجلة لغة العسرب ،  
ص ٤١٧ .

(٤) الجاحظ ، "كتاب فضل بني هاشم على عبد شمس" ، رسائل الجاحظ ، تحقيق  
السندوبي ، ص ٨٢ .



بالنبوة " التي تشل جماع خصال الخير واعلاها وافضلها " (١) فاصبح كما يقول الجاحظ " خيرة الله تعالى من خلقه وصفيه من عباده والمؤمن على وحيه " (٢) لانه اوفر الخلق حظا في التحلي بما قسم الله من خيرات لعباده . قال :

" . . . ولم يقسم الله مذهباً رضىً ، ولا خلقاً زكياً ، ولا عملاً مرضياً الا وحظه منه اوفر الحظوظ ، وقسّمه فيه اجزل الاقسام " (٣)

وفي مفهوم الجاحظ ان محمّداً قد فضل العالين لثمنه بطائفة من الخصائص الخلقية لم يشرك فيها بشر ؛ اما تفوقه الخلقى فواضح في قول الجاحظ :

" . . . وآية اخرى لا يعرفها الا الخاصة . . . وهي الاخلاق التي لم تجتمع لبشر قط قبله ، ولا تجتمع لبشر بعده . وذلك انا لم نر ولم نسمع لاحد قط كصبره ، ولا كعلمه ، ولا كوفائه ، ولا كزهده ، ولا كجوده ، ولا كجودته ، ولا كصدق لهجته ، وكرم عشرته ، ولا كتناوضه ، ولا كعلمه ، ولا كحفظه ، ولا كصمته اذا صمت ، ولا كقوله اذا قال ، ولا كعجيب منشئه ، ولا كقلبه تلونه ولا كعفوه ، ولا كدوام طريقته وقلة امتثانه . . . فلا يستطيع منافق ولا زنديق ولا دهرى ، ان يحدث ان محمّداً عليه السلام جال جولة قط ، ولا فرّ فرّة قط ، ولا خام عن غزوة ، ولا هاب حرب من كاشره . (٤)

وقد اكد الجاحظ ايضا على تفوق النبي البىاني حين قال :

" . . . وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لم يسبقه اليه عربي ، ولا شارك فيه اعجمي ، ولم يدّع لاحد ، ولا ادعاء احد ما صار مستعملاً وشيئاً سائراً . . . وهو الكلام الذى قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه ، وجعل عن الصنعة ، ونزه عن التكلف ، وكان كما قال الله تبارك وتعالى : قل يا محمّد ( وما انا من المتكلمين ) . . . (٥) وقد استعمل الهسوط في موضع الهسط ، والمقصور في موضع القصر ، وهجر الغريب الوحشي . . .

- 
- (١) الجاحظ ، " كتاب الاوطان والبلدان " ، رسائل الجاحظ ، ٤ : ١٢١ .
  - (٢) الجاحظ ، رسالة في حجج النبوة " ، المصدر نفسه ، ٣ : ٢٥٧ .
  - (٣) الجاحظ ، رسالة مدح التجارة " ، المصدر نفسه ، ٤ : ٢٥٦-٢٥٥ .
  - (٤) الجاحظ ، " رسالة في حجج النبوة " ، المصدر نفسه ، ٣ : ٢٨٠-٢٨١ .
  - (٥) سورة ص : ٨٦ .

فلم ينطق الا عن مبراث حكمة ، ولم يتكلم الا بكلام قد حَقَّ بالعصمة وشهد بالتأييد ويسر بالتوفيق . وهو الكلام الذى اتقى الله عليه المحبة ، وفشاء بالقبول ، وجمع له بين السهابة والحلاوة وبين حسن الافهام وقلة عدد الكلام . . . لم يقم له خصم ولا افحمه خطيب . . . لا يحتج الا بالصدق ولا يطلب الفلج الا بالحق . . . لم يسمع الناس بكلام قط اعم نفعسا ، ولا اقصد لفظا ، ولا احسن موقعا ، ولا افصح معنى ، من كلامه صلى الله عليه وسلم . . . والذى يدلُّك على ان الله عز وجل قد خصه بالايجاز وقلة عدد اللفظ ، مع كثرة المعاني ، قوله صلى الله عليه وسلم : " نصرت بالصبا ، واعطيت جوامع الكلم " . (١)

وقد لاحظ الجاحظ ان تفوق النبي الهباني والخلقى كان يخضع لاشراف الهبى محكم بدلالة قول النبي : " نقلت من الاصلاب الزاكية الى الارحام الطاهرة ، وما افتقرت فرقتان الا كنت في خيرهما " . (٢) وقد فصل الجاحظ كيفية ذلك الاشراف وتلك التهيبة لجعل الله النبي مستودع آياته ، بقوله :

" . . . فنزّه الله رسوله ، ولم يعله الكتاب والحساب ، ولم يرغبه في صنعة الكلام ، والتعميد لطلب الالفاظ ، والتكلف لاستخراج المعاني ، فجمع له باله كله في الدعاء الى الله ، والصبر عليه ، والسجادة فيه ، والانبات اليه ، والسييل الى كل ما قرب منه ، فاعطاء الاخلاص الذى لا يشوبه ريبا ، واليقين الذى لا يظوره شك ، والعزم المتكمن ، والقوة الفاضلة . . . فانما نقصه ليزيده ، ومنعه ليعطيه " . (٣)

- 
- (١) انظر البخارى ، باب التعبير : ١١ ، حيث ورد الحديث بلفظ " اوتيت جوامع الكلم " والباب نفسه : ٢٢ ، حيث ورد بلفظ " بعثت بجوامع الكلم " . انظر : ونسلك ، أ. س. ، و منسوخ ، س. ب. ، في المعجم المفهرس لالفاظ الحديث النبوى ، ( ليدن : بريل ، ١٩٦٧ ) ٦ : ٠٨٥ . وانظر الجاحظ ، البيان والتبيين ، ٢ : ١٧ ، ١٨ ، ٢٨ .
- (٢) الجاحظ ، " كتاب فضل هاشم على عبد شمس " ، رسائل الجاحظ ، تحقيق : السندوبى ، ص ٨٢ . ونص الحديث : " ثم فرقهم فرقتين فجعلني من خير الفرقتين " في مسند احمد ابن حنبل ، الباب الرابع : ١٦٦ . او بلفظ " فجعلني من خيرهم " في سنن الترمذى باب المناقب : ١ . انظر مادة " فرق " ، المعجم المفهرس لالفاظ الحديث النبوى ، ج ٥ ، ١٣٦٠ .
- (٣) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ٤ : ٣٠ - ٣٢ .

وإذا كان الله قد صرف النبي عن الأمور التي كان يتكلفها قومه ويتنافسون فيها ،  
تمييزاً للنبوّة عن الشعر ، فإن ذلك لم يمنع النبي أن يصبح ، بالنبوّة ، أفصح العرب  
لان حكمة الله في رسالاته تقتضي تناسبا بين النبوّة والوسط البشري الذي يستقبلها ،  
لكي يكون التحدي من جنس ما تفوق به ذلك الوسط . قال الجاحظ :

" ولما كان اعجب الأمور عند قوم فرعون السحر ، . . . بعث الله موسى  
عليه السلام على ابطاله وتوهمينه ، وكشف ضعفه واظهاره ، ونقض اصله . . .  
مع ما اعطى الله موسى عليه السلام من سائر البرهانات وضروب العلامات .  
وكذلك زمن عيسى عليه السلام . . . وكذلك زهر محمد صلى الله عليه وسلم ،  
كان اغلب الأمور عليهم واحسنها عندهم واجلها في صدورهم ، حسن  
البيان ، ونظم ضروب الكلام ، مع علمهم له وانفرادهم به . فحين شاعت  
البلاغة فيهم وكثر شعراؤهم وفاق الناس خطباؤهم ، بعث الله عز وجل ،  
فتحداهم بما كانوا لا يشكون انهم يقدرون على اكثر منه . . . وكان ذلك  
من اعجب ما آتاه الله نبيا قط مع سائر ما جاء به من الآيات ، ومن ضروب  
البرهانات . ولكل شي " باب ومأتى ، واختصار وتقريب . فمن احكم الحكمة  
ارسال كل نبي بما يفهم اعجب الأمور عندهم ، ويبطل اقوى الاشياء فسي  
ظنهم . . . وان محمدا صلى الله عليه وسلم مخصوص بعلامة لها فسي  
العقل موقع ، كموقع فلق البحر من العين ، وذلك قوله لقريش خاصة ،  
وللعرب عامة ، مع ما فيهما من الشعراء والخطباء والبلغاء ، والدهاة  
والحلماء ، واصحاب الرأي والمكيدة ، والتجارب والنظر في العاقبة :  
ان عارضتموني بسورة واحدة فقد كذبت في دعواي ، وصدقم في تكذبي . " (١)

وقد عبر الجاحظ عن التناسب بين المعجزة والوسط البشري الذي نزلت فيه

بقوله ايضا :

" واعلم ان الله تعالى لم يرسل رسولا ولا بعث نبيا الا من كان فضلته  
في كلامه وبيانه على فضل السبعوث اليه . فكان النبي صلى الله عليه وسلم  
افصح العرب لسانا ، واحسنهم بيانا ، واسهلهم مخارج للكلام واكثرهم  
فوائد من المعاني ؛ لانه كان من جماهير العرب : مولده في بني هاشم ،

(١) الجاحظ ، " رسالة حجج النبوّة " ، رسائل الجاحظ ، ٣ : ٢٧٣ و ٢٧٨ - ٢٨٠ .

واخواله من بني زهرة ، ورضاعه في بني سعد بن بكر ، ومنشؤه في قريش . . .  
وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : " انا افصح العرب بيد اني من قريش ،  
ونشأت في بني سعد بن بكر . " (١) ولولم يكن ما عدنا من هؤلاء الأحياء  
الاقريش وحدها لكان فيها مستغنى عن غيرها . . . لان قريشا افصح  
العرب لسانا وفضلها بيانا ، واحضرها جوابا ، واحسنها بديهة ، واجمعها  
عند الكلام قلبا . " (٢)

وما خص به محمد انه ارسل للعالمين ، في حين ان الرسالات التي سبقته كانت  
تخص امة دون غيرها . وهذه النقلة من المحلية الى العالمية هي فضل نبوة محمد بن  
عبدالله الذي اصبح رسولا لجميع الامم ؛ وبذلك يكون قد فتح بعدا جديدا من ابعاد  
الرسالات الساوية مع الاجناس والامم . قال الجاحظ :

" . . . والله عز وجل قد بعث محمدا صلى الله عليه وسلم الى العجم فضلا  
عن العرب . . . وقد جعل الله قوم كل نبي هم السالكين والحجة . الا ترى اننا  
نزعم ان عجز العرب عن مثل نظم القرآن حجة على العجم ، من جهة اعلام  
العرب العجم انهم كانوا عن ذلك عجزا . وقد قال النبي صلى الله عليه  
وسلم : خصصت بامور : منها اني بعثت الى الاحمر والاسود . . . وجعلت  
لي الارض طهورا . " (٣) فدل بذلك على ان غيره من الرسل انما كان يرسل  
الى الخاص . وليس يجوز لمن عرف صدق ذلك الرسول ، من الامم ، ان  
يكذبه ، وينكر دعواه . . . هذا فرق من بعث الى البعض ومن بعث الى  
الجميع . " (٤)

وبذكر الخصال التي فضل بها محمد العرب والعجم ، تكون قد انتهينا القسم المتعلق  
بنظرية الجاحظ في حسنات العرب ونأتي الى عرض آرائه في مساوي العرب .

- 
- (١) لم يرد الحديث في كتب الحديث النبوي ، لكنه ورد في لسان العرب ، مادة " بيد " ،  
( بيروت : دار صادر ، ١٩٥٥ ، ) ٣٠ : ٩٩ نقل عن ابن الاثير في النهاية في غريب الحديث .  
(٢) الجاحظ ، " رسالة في تفضيل النطق على الصمت " رسائل الجاحظ ، ٤ : ٢٣٧ -  
٢٣٨ .  
(٣) نص الحديث في الجامع الصحيح لسلم بن الحجاج ، باب الساجد : ٣ ، ومسنود  
الدارمي ، باب السير : ٢٨ . انظر : المعجم المفهرس لالفاظ الحديث النبوي .  
(٤) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ٣ : ٢٩١ - ٢٩٦ .

ان الجاحظ في مآخذه على العرب انطلق من الجاهلية مروراً بالاسلام وحكم  
بني امية وبني العباس . ونعرض آراءه في كل على حدة .

١- مآخذه على عرب الجاهلية :

من الخصائص الاجتماعية التي انتقدها الجاحظ في عرب الجاهلية ، اتصافها  
بالحمية والجفا ، وغلظ الطباع والوحشية والعرضية والمعرفية والعنجهية . (١)

- (١) الجاحظ ، " كتاب النبل والتنبيل ودم الكبر ، " رسائل الجاحظ ، ٤ : ١٢٥ - ١٢٦ .  
والمقصود بالحمية حمية عرب الجاهلية في تعظيم الرواسا ، وحرب الاخوة . راجع  
" رسالة الجاحظ في الحكمين وتصويب امير المؤمنين علي بن ابي طالب " مجلدة  
الشرق ، ص ٤٢٦ و٤٣٣ . واما جفا العرب والاعراب فقد ذكره الجاحظ في  
موضعين : الاول حين ميز قريشا عن سائر العرب بقوله : " ومن خصالهم انهم  
لم يشاركوا العرب والاعراب في شي " من جفائهم وغلظ شهواتهم . وكانوا لا يأكلون  
الضباب ولا شيئا من الحشرات . " انظر : كتاب في الاوطان والبلدان ، " رسائل  
الجاحظ ، ٤ : ١١٢ . والثاني في نقده لعرب عصره حين قال : " وهو لا الجفاة  
والاعراب المحرمون ومن قل فقهه في الدين اذا خطبوا على المنابر فكانهم فسوي  
طباع اولئك الجانين . " البيان ، ٢٤ : ٢٣٦ .  
ويلاحظ ان الجاحظ نظر الى اعراب الجاهلية واعراب عصره نظرة واحدة اعتمادا  
على قول النبي : " من سكن البادية جفا . " ولكن يجب التفريق بين الخصال  
الوحشية للاعراب - التي هي مادة لمآخذ الجاحظ هنا - وبين الخصال الانسانية  
الرقبة لقريش التي لم تشارك الاعراب في خصالها . ويجب التمييز ايضا بين مفهوم  
الجاحظ لفضيلة شظف العيش - المتمثلة في اشارة الجاحظ السابقة الى قلسة  
طعام العرب وصبرها وجهادها ( انظر البخلا ، ٩٣ ، ٩٨ ، ١٠٦ ، ٢٠١ ) -  
وسمات الجفا ، وغلظ الطباع والعنجهية والمعرفية التي شاعت بين الاعراب .  
والخلاصة ان الجاحظ لم يحتكر مناقب الخير في قريش دون سائر العرب لان  
الجاحظ يرى ان من العرب من تميز بمناقب قريش . قال : لان قريشا والعرب  
قد يستون في مناقب كثيرة . قد يلغى في العرب الجواد الصبر ، وكذلك الحلیم  
والشجاع . " انظر : الجاحظ ، " كتاب الاوطان والبلدان ، " رسائل الجاحظ ،  
٤ : ١١٤ .

وقد خص الجاحظ العادات الدينية لعرب الجاهلية وسائر الامم بدراسة خاصة (١) اظهر فيها استواء تهافت الامم في هذه المسألة ، نذكر منها ظواهر الطيرة والايان بالتهافت ، وعبادة الحجارة التي سموها آلهة . اما الطيرة (٢) لدى العرب فقد عقد الجاحظ فصلا طويلا في هذه الظاهرة توجه بايراد نص لاستاذة النظام تضمن عدم ايان الاخير بها لانها "باطل" (٣) .

واما ظاهرة ايان العرب بالتهافت ، فان الجاحظ لم يملك الا السخرية مسن اولئك "الاعراب واشباه الاعراب ، الذين لا يتحاشون من الايمان بالتهافت" (٤) ومن ان للتهافت شعرا ان الاعراب "تزعم ان مع كل فعل من الشعراء شيطانا يقول الفحل على لسانه الشعر" (٥) وقد تبني الجاحظ موقف استاذة المعتزلي النظام (٦) ، في تحليل ظاهرة مكالة الاعراب للجن وعزيف الجن لهم . قال في تفسير ذلك :

" واصل هذا الامر وابتدأوه ، ان القوم لما نزلوا بلاد الوحش ، عملت فيهم الوحشة . ومن انفرد وطال مقامه في البلاد والخلأ ، والبعد من الانس ، استوحش . . . واذا استوحش الانسان تمثل له الشيء الصغير في صورة الكبير ، وارتاب ، وتفرق ذهنه ، وانتقضت اخلاطه ، فرأى ما لا يرى ، وسمع ما لا يسمع . . . ثم جعلوا ما تصور لهم من ذلك شعرا تناشدوه ، واحاديث

(١) الجاحظ ، " كتاب الاخبار وكيف تصح ، " المجلة الآسيوية .

(٢) اصل التطير في رأى الجاحظ من الطير اذا مر بارحا او سانحا ( من اليمين الى الشمال او العكس ) حتى صارت العرب اذا عابنت الاهور من النساس او البهائم تطيرت عندها ، كما تتطير من الطير اذا رأتها على تلك الحال . انظر : الجاحظ ، كتاب الحيوان ٣٠ : ٤٤٣ - ٤٥٣ .

(٣) المصدر نفسه ، ٣٠ : ٤٥٣ .

(٤) الجاحظ ، كتاب الحيوان ٦٤ : ٢٠٢ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩ .

(٥) الجاحظ ، المصدر نفسه ، ٦٤ : ٢٢٥ والفحل من الشعراء " المتفوق على غيره . وفحول الشعراء هم - الذين غلبوا بالهجا " من هجاهم وكل من عارض شاعرا فغلبه . راجع لسان العرب ، لابن منظور ، مادة فحل .

(٦) الجاحظ ، المصدر نفسه ، ٦ : ٢٤٨ . ويشرح الجاحظ الفرق بين الغيلان والسعلاة بقوله : " السعلاة هي كما يزعم الاعراب الواحدة من الجن قبل ان تتفول اي تتلون لتفتن السفار " . انظر الحيوان ٦ : ١٥٨ .

توارثوها فزادوا بذلك ايماناً ، ونشأ عليه الناشئ\* ، ورثي به الطفل ،  
فصار احدهم حين يتوسط الفيا في . . . عند اول وحشة وفزعة ، وعند  
صياح بوم ومجاوبة صدى . . . يقول : رأيت الفيلان ، وكلمت السعلاة اثم  
يتجاوز ذلك الى ان يقول : قتلتها . . . ورافقتها . . . وتزوجتها . . .  
وما زادهم في هذا الباب ، واغراهم به ، ومد لهم فيه ، انهم ليس يلقون  
بهذه الاشعار وبهذه الاخبار الا اعرابيا مثلهم ، والا طاميا لم يأخذ نفسه  
قط بتمييز ما يستوجب التكذيب والتصديق او الشك . . . (١)

والملاحظ ان للاستيحاء وجهين في نظر الجاحظ : الوجه السلبي كما رأينا ،  
وهو بالقدر الذي ينحرف بالانسان الى مساوي العزلة عن المجتمع ، والوجه الايجابي  
الذي يعكسه النص التالي ، لانه يساعد على تفتق الذهن وصفا القرحة . قال  
الجاحظ :

\* والعرب كانوا سكان فياف وتربية العرا . اذهان حداد ونفوس مفكرة . . .  
فحين حملوا حداهم ووجهوا قواهم لقول الشعر وبلاغة المنطق وتشقيق  
اللغة . . . بعد الاستدلال بالآفاق وتعرف الانواع ، والاعتبار بكسل  
محسوس ، بلفوا في ذلك الغاية وحازوا كل امنية . (٢)

وقد انكر الجاحظ على الاعراب زعمهم ان للفيلان (٣) قدرة على اعتراض السفار  
او قدرة على تغيير العقل . قال الجاحظ :

\* انهم لم يسلطوا على الصحيح العقل ، ولو كان ذلك اليهم لبدأوا بعلي  
ابن ابي طالب ، وحمزة بن عبد المطلب وياحي بكر وعمر في زمانهم ،  
وبغيلان والحسن في دهرهما ، وهو اصل وعمر في ايامهما . (٤)

- 
- (١) الجاحظ ، المصدر نفسه ، ٦٤ : ٢٤٩ - ٢٥١ .  
(٢) الجاحظ ، رسالة في مناقب الترك ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٧٠ .  
(٣) اللفظ مشتق من الجان اذا تغول اي تلون وتشكل ليفتن السفار ، انظر :  
الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٦٤ : ١٥٨ .  
(٤) المصدر نفسه ، ٦٤ : ١٦٠ .

وقد جمع الجاحظ سائر عيوب عرب الجاهلية لتعريف الناس "تفاوت ما بين حال العاقل في دنياه ودينه" (١) فقال :

"... وهم مع ما حكيت لك من صحة العقل وكرم الطبيعة وحسن البهتان وسعة المعرفة وجودة الرأي وشدة الانفة ، يعبدون الحجارة ويحلفون بها ويتحامون كسرها وتهجينها وينكسون لها ويدعونها آلهة ويخاطبونها... ثم مع ذلك ربما رموا بها واتخذوا سواها... ويقولون : ايما رجل قتل فلم يطلب وليه بدمه خلق من دماغه طير يسمى هامة ، فلا يزال يزقو على قبره وينعي عليه ، عجز وليه ، حتى يبعث... ثم كانوا يستسقون للبيت... وكانوا اذا اجدهت بلادهم فارادوا الاستطار اخذوا بعيرا اورق فشدوا في ذنبه العشر او السلع وصعدوه في الجبل واشعلوا في ذنبه النار ودعوا وتضرعوا ، ويؤمنون . انهم ان لم يفعلوا ذلك لسم يستجب الله منهم... وكان الرجل منهم اذا غزا عقد خيطا في ساق شجرة ، فاذا رجع ورآه منحلا فقد خانته قعيدته بزعمهم ، وان رجوع ووجده بحاله فقد حفظت نفسها له . قال الشاعر :

هل ينفعنك اليوم ان همت بهم كثرة ما توصي وتعقاد الرتم ؟  
والرتم اسم الخيط بعينه . وكانوا يقولون : اذا احب الرجل المرأة واحبته ، فان لم يشق عليها برقعها وتشق عليها رداه فسد حبها ، وان فعلا ذلك دام حبها ، قال عبد بني الحساس :

وكم قد شققنا من رداه ومزير      ومن برقع عن طفلة غير عانس  
اذا شق يرد شق بالبرد مثله      د واليك حتى كنا غير لانس

هذا مع ايمانهم بالعدوى والجن وتلون الغيلان... ومع مذهبهم في الحامي والبحيرة والوصيلة والسائية مع امور كثيرة لا يحتاج الى ذكرها ؛ وانما اردنا من ذلك ان يعرف الناس تفاوت ما بين حال العاقل في دنياه ودينه . فاذا صار الى التكذيب والتصديق والايمان والكفر صار الى غير الذي كان عليه من التمييز" (٢) .

(١) الجاحظ ، كتاب الاخبار وكيف تصح ، "المجلة الآسيوية" ، ص ٩٤ - ٩٧ .

(٢) المصدر نفسه .



ونختم حديثنا عن رأى الجاحظ في عرب الجاهلية بايراد القطعة التالية  
حول عادة بعض العرب في نسبة عار الفرد الى المجموع :

" والعرب اذا وجدت رجلا من القبيلة قد اتى قبيحا الزمت ذلك القبيلة  
كلها ، كما تمدح القبيلة بفعل جميل وان لم يكن ذلك الا بواحد منها ،  
فتهجو قريشا بالسخينة وعبد القيس بالتمر وذلك عام في الحيين جميعا  
وهما من صالح الاغذية والاقوات ، كما تهجو بأكل الكلاب والناس وان كان  
ذلك من رجل واحد . " (١)

والجاحظ ، كما يهدون النص اعلاه لا يروقه اطلاق التعميمات السهوية علسسى  
حوادث جزئية وكأننا يدعو ان تكون العرب اكثر استقرا لتفاصيل الواقع الذى تمدحه  
او تهجوه ، قبل اطلاق الحكم التعميمي عليه .

---

(١) الجاحظ ، البخلاء ، ص ٢١٥ .

اخذ الجاحظ على عرب صدر الاسلام الذين عادوا النبي وآذوه ، و اشار الجاحظ الى واقع عداوتهم للنبي مستعينا بنص الكفة التي قالها عبدالله بن عبدالله بن الاهتم لعمر بن عبدالعزيز . قال :

" اما بعد فان الله خلق الخلق غنيا عن طاعتهم ، آمنا لمعصيتهم ، والناس يؤمذ في المنازل والرأى مختلفين ، والعرب بشر تلك المنازل ، اهل الوهر واهل المدر ، تحتاز دونهم طيبات الدنيا ورفاغة عيشها : ميتهم في النار وحيهم اعمى . مع ما لا يحصى من السرغوب عنه ، والزهود فيه . فلما اراد الله ان ينشر فيهم رحمة ، ويسبغ عليهم نعمته ، بعث اليهم رسولا منهم عزيزا عليه ما عنتوا ، حريصا عليهم ، بالسوء من ربه وفاقا رحيميا ، فلم يمنعمهم ذلك من ان جرحوه في جسسه ولقبوه في اسمه ، ومعه كتاب من الله ناطق ، وبرهان من الله صادق . . . . ." (١)

ويكشف الجاحظ عن ملامح اخرى لتلك العداوة بعد ان تحداهم النبي بمعارضة القرآن . قال :

" وبعد ، فقد هجوه من كل جانب . . . وحاجوه في السواقف ، وخاصوه نسي المواسم ، وبادوه العداوة ، وناصره الحرب . . . وهم اثبت الناس حقا ، وابعدهم مطلبا ، واذكرهم لخير او لشر . . . وهل يذعن الاعراب واصحاب الجاهلية للتقريع بالعجز ، والتوقيف على النقص ، ثم لا يبذلون مجهودهم ، ولا يخرجون مكنونهم وهم اشد خلق الله عز وجل انفة ، وافرط حمية ، واطلبه بطائلة . . . ." (٢)

اما اصحاب التحدى القرآني الذين " بذلوا النفوس والاموال وخرجوا من ديارهم في اطفاء امره وفي توهين ما جاء به " (٣) فهم لم يخرجوا عن كونهم جماعة " الشعراء " والخطباء

---

(١) الجاحظ ، البيان ، ٢ : ١١٨ .  
(٢) الجاحظ ، رسالة في حجج النبوة ، رسائل الجاحظ ، ٣ : ٢٧٤ - ٣٧٧ .  
(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٧٤ .

والبلغاء والدهاة والحلما واصحاب الرأي والمكيدة والتجارب والنظر في العاقبة<sup>(١)</sup> .  
ولكن جميع هؤلاء ، من قريش خاصة والعرب عامة ، عجزوا عن معارضة فكان المعجز  
فيهم فاشيا ظاهرا<sup>(٢)</sup> مع " ان الكلام كان سيد عملهم ، وتحبيره اهن من القتال وسن  
اخراج المال ."<sup>(٣)</sup> ومع ذلك ، فانهم استمروا في الطعن في القرآن ، دون جدوى مع  
كثرة عددهم وشدة عقولهم واجتماع كلمتهم ،"<sup>(٤)</sup> وفي هذا مأخذ واضح عليهم . قال :

" ولم يقل : ان القوم قد تركوا مسألت في القرآن والطعن فيه . . .  
وبذلك على ذلك قوله عز وجل : ( وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن  
جملة واحدة ) . وقوله عز ذكره : ( واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين  
لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا او بدله ) ، وقوله تعالى جل ذكره :  
( وقال الذين كفروا ، ان هذا الا افك افتراء واعانه عليه قوم آخرون )"<sup>(٥)</sup>

وقد رد الجاحظ سوء تصرفهم تارة الى الانفة والسحمة والكبر وطورا الى الحسد<sup>(٦)</sup> .  
اما الكبر ، فقد افرد الجاحظ رسالة في ذمه ، حلل فيها مساوي الكبر الذي  
راه مفتاح المعاصي وشر العيوب . قال :

" والكبر من جميع الناس قبيح ، ومن كل العباد مسخوط ، الا انه عند  
الناس من عظام الاعراب ، واشباه الاعراب اوجد ، وهولهم اسرع ، لجفائهم  
ومعدهم من الجماعة ، ولقلة مخالطتهم لاهل العفة والرعة ، والادب والصنعة . . .  
وما ظنك بشي<sup>٥</sup> العجب شقيقه والبهذخ صديقه ، والنفج أليفه ، والصلف  
عقيدته . . . وشر العيوب ما كان مضمنا بعيوب ، وشر الذنوب ما كان علما  
لذنوب . والكبر اول ذنب كان في السموات والارض ، واعظم جرم كان من  
الجن والانس واشهر تعصب كان في الثقلين . عنه لج ابليس فسبي  
الطغيان وعتا على رب العالمين وخطأ ربه في التدبير ، ومن اجلسه  
اخرج من الجنة وقيل له : ( ما يكون لك ان تتكبر فيها ) . . . ومن

- 
- (١) المصدر نفسه ، ص ٢٧٣ .  
(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٧٦ .  
(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٧٦ و ٢٧٧ .  
(٤) المصدر نفسه ، ص ٢٧٢ .  
(٥) المصدر نفسه ، ٢٧٦ والآيات هي على التوالي : الفرقان : ٣٢ وهونس : ١٥ ،  
والفرقان ٤ .  
(٦) كما سنذكر في القسم المتعلق بمأخذ الجاحظ على بني امية .

معصيته اخرج آدم من الجنة ، وشهر في كل افق واة . ومن اجله نصب  
العداوة لذريته وتفرغ من كل شي الا من اهلك نسله . . . والكبر هو  
الذي زين لايليس ترك السجود ، ووهبه شرف الانفة . . . وحبب اليه  
المخالفة وآتسه بالوحدة والوحشة ، وهون عليه سخط الرب . . . وزين  
له قول الزور ، وزهد في جوار الملائكة ، وجمع له خلال السوء ، ونظم له  
خلال الشر ؛ لانه حسد والحسد ظلم ، وكذب والكذب ذل ، وخصدع ،  
والخدیعة لوئم . . . والكبر معنى ينتظم به جماع الشر ، والتواضع معنى  
ينتظم به جماع الخير . . . ولو كان الكبر لا يعترى الا الشريف والجميل ،  
او الجوار ، او الوفي او الصدوق ، كان اهون لامره . . . ولكنا نجده في  
السفلة كما نجده في العلية ، ونجده في القبيح كما نجده في الحسن ،  
وفي الدميم كما نجده في الجميل . . . وفي الذي ذى الجزية . . . كما نجده  
في قابض جزيته . . . ولو كان في الكبر خير لما كان في دهر الجاهلية  
اظهر منه في دهر الاسلام ، ولما كان في العبد افشى منه في الحر ، ولما  
كان في السند اعم منه في الروم والفرس . (١)

وباختصاره فان النبي قد لقي من عاصر دعوته ، اشد المكروه وقد استوى في  
ايذاك من جمعته القربى به ومن لم تجمه ايضا . قال :

" وليس بطن من بطون قريش الا وقد لقي النبي صلى الله عليه وسلم منه  
اعظم المكروه ، وان كانوا في ذلك على طبقات : من مجتهد لا يبقي ولا يفتر  
ولا يسمأ ، ومن رجل ماؤس معهم بخلعه بيد معهم لضره - وان كان لا يبلغ ظلو  
الآخر وتصميمه وقلة اخفاله . ولقد كانت خزاعة وثقيف على بعد انسابها  
وارحامها ، احسن تقية من قريش في اظهار العداوة والارصاد بالمكروه  
والثبات على البغي . . . على انهم قد اجلبوا وطعنوا وكفروا وكذبوا . . .  
ولقد كان ابولهب على قربه وقرابته ، شبيها بابي جهل في الغلظة والقسوة  
والجفا ، وكثرة التدرى وقلة السامة . . . وكان بني عبد مناف على قرههم وقرابتهم ،  
اشد الخلق على رسول الله . . . " (٢)

(١) الجاحظ ، " كتاب في النبل والتنبل ودم الكبر ، " رسائل الجاحظ ، ج ٤ : ١٢٥ -

١٨٢ . والملاحظ ان الجاحظ في انتقاده العرب الذين عاصروا النبي ، ينسب  
انتقاده على اظهار الصفات وتقصى الاسباب التي اذت بهم الى مخاصة النبي ،  
منتها الى انها ترجع الى خلق الكبر .

(٢) الجاحظ ، كتاب العثمانية ، تحقيق عبدالسلام هارون ، ( مصر : دار الكتاب العربي ،

١٩٥٥ ) ص ١٠١ - ١٠٣ .

إذا كانت تعاليم الاسلام دافعا اساسيا جعل الجاحظ ينطلق منها للتعبير عن جملة مآخذه على العرب ، فان العامل الديني لم يكن العامل الاوحد الذي صدرت عنه تلك المآخذ ، ان كان للسياسة نصيب في هذا الشأن ايضا . فارتباط الجاحظ باهل الحكم العباسي جعله اشبه ما يكون بالناطق الرسمي عن معتقدات ذلك الحكم ، والمدافع الاول عنها ازا ، خصوصها السياسيين ولا سيما بني أمية .

وقد انطلق الجاحظ من الجاهلية في انتقاده لبني أمية ، قائلا ان قيام بني هاشم بالايلاف ، وتأسيسهم حلف الفضول ، ودا عن استئثارهم باسرف خصال قريش في الجاهلية ، كاللوا ، والندوة والسقاية والرفادة وزمزم والحجابه (١) دون بني عبد شمس ، لسا يفتح باب المآخذ الدينية بشكل قوى على بني أمية ، ويتابع قائلا :

" . . . وصنع أمية في الجاهلية شيئا لم يصنعه احد من العرب ، زوج ابنة ابا عمرو امرات في حياته منه ، فاولدها ابا معيط بن ابي عمرو بن أمية . والمقيتون في الاسلام هم الذين نكحوا نساء آبائهم بعد موتهم . فاما ان يتزوجها في حياة الاب ويبنى عليها وهو يراه فانه شي لم يكن قط . . ." (٢)

ويؤكد الجاحظ تهافت بني أمية الديني من خلال ذكره لحوادث معينة في صدر الاسلام او خلال الحكم الاموي . اما في صدر الاسلام ، فان الجاحظ ينكر اي تفوق لبني أمية على بني هاشم فيما يتعلق بنبوته محمد لان الحسد والبغضة كانا يمنعان بنسي أمية من نصره النبي . قال :

" . . . قال الله تعالى : ( وانذر عشيرتک الاقربين ) فلم يدع النبي صلى الله عليه وسلم احدا من بني عبد شمس ، وكانت عشيرته الاقربون بني هاشم وبني عبد المطلب ، وعشيرته فوق ذلك عبد مناف ، وفوق ذلك قصي . . . وقد علم الناس ان عبد مناف ولد اربعة : هاشما والمطلب وعبد شمس ونوفلا . وان هاشما والمطلب كانا يدا واحدة وان عبد شمس ونوفلا كانا يدا واحدة . وكان ما ابطأ ببني نوفل عن الاسلام ابطأ اء اخوتهم من بني عبد شمس ، وكان ما حدث بني المطلب على الاسلام فضل

(١) الجاحظ ، " كتاب فضل هاشم على عبد شمس ، " رسائل الجاحظ ، تحقيق السندوي ،

(٢) ص ٦٢ المصدر نفسه ، ص ٧٥

محبتهم لبني هاشم . لان امر النبي صلى الله عليه وسلم كان بينا وانما كانوا يمتنعون منه من طريق الحسد والبغضة . فمن لم يكن فيه هذه العلة ، لم يكن له دون الاسلام مانع . . . (١)

ويعود الجاحظ ثانيا الى تقصي باعث خلق الحسد الذي ادى الى امتناع بني امية وغيرهم عن نصره النبي ، فيردّه الى عامل الكبر :

" والمذكورون من الناس بالكبر ، ثم من قريش : بنو مخزوم وبنو امية . ومن العرب : بنو جعفر بن كلاب وبنو زارة بن عدس خاصة . . . فاما بنو مخزوم وبنو امية ، وبنو جعفر بن كلاب ، وبنو زارة بن عدس ، فأبظروهم ما وجدوا لانفسهم من الفضيلة . ولو كان في قوى عقولهم وديانتهم فضل على قوى داعي الحمية فيهم ، لكانوا كبني هاشم في تواضعهم وفي انصافهم لمن دونهم . . . (٢)

ولم يأخذ الجاحظ على بني امية امتناعهم عن نصره الاسلام وقت البعثة فحسب وانما اخذ عليهم محاربتهم آل البيت النبوي خلال الفترات التاريخية اللاحقة :

" . . . والعباس هو الذي منع الناس من قتل ابي سفيان وجاء بسسه رديفا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . وتلك يد بيضا ونعممة غراء ومقام شهود . . . فكان جزاء بني هاشم من بنيهم ان حاربوا عليا ، وسبوا الحسين وقتلوا الحسين وحملوا النساء على الاقتاب حواسر وكشفوا عن عورة علي بن الحسين حين اشكل عليهم بلوفه كما يصنع بذراري الشركين اذا دخلت دورهم فتوة . . . وقتل عبيد الله بن زياد يوم الطّف تسعة من صلب علي وسبعة من صلب عقيل . . . واكثت هند كبد حمزة ، فمنهم آكلة الاكباد ، ومنهم كهف النفاق ، ومنهم من نقر بين ثنيتي الحسين بالقضيب ، ومنهم القاتل يوم الحرّة : عون بن عبد الله بن جعفر ، ويوم الطّف : ابا بكر بن عبد الله بن جعفر . . . قال ابو عثمان : . . . وسبتم ابا هاشم عبد الله بن محمد بن علي بن ابي طالب ، ونهشتم زيدا وصلبتموه . . . وقتلت الامام جعفر الصادق ، وقتلت يحيى بن زيد وسبتم قاتله ثامر مروان وناصر الدين . . . (٣)

(١) الجاحظ ، " كتاب فضل هاشم على عبد شمس ، " رسائل الجاحظ ، تحقيق السندوبي ،

ص ١١٢-١١٤ . والآية المذكورة هي من سورة الشعراء : ٢١٤ .

(٢) الجاحظ ، " كتاب الحيوان ، ٦ : ٧٠-٧٢

(٣) الجاحظ ، " كتاب فضل هاشم على عبد شمس ، " رسائل الجاحظ ، تحقيق السندوبي ،

ص ٧٨-٧٩ .

ويعلل الجاحظ سوء تصرف عمال بني امية بأنه ينطلق من كفر قاداتهم  
المدعين للإمامة او الخلافة عليهم لتحررهم من احكام الكتاب والسنة :

"... فعندها استوى معاوية على السلك واستبد على بقية الشورى ،  
وعلى جماعة المسلمين من الانصار والمهاجرين في العام الذي سموه عام  
الجماعة - وما كان عام جماعة ، بل كان عام فرقة وقهر وجبرية وظلمة ،  
والعام الذي تحولت فيه الامامة ملكا كسرويا ، والخلافة غصبا قيصريا ،  
ولم يعد ذلك اجمع الضلال والفسق . ثم مازالت معاصيه من جنس  
ما حكينا ... حتى رد قضية رسول الله صلى الله عليه وسلم ردا مكشوفاً ،  
وبجد حكمة جعدا ظاهرا ، وفي ولد الفراش وما يجب للماهر ، مع اجماع  
الامة ان سمية لم تكن لابي سفيان فراشا ، وانه انما كان بها عاهرا ،  
فخرج بذلك من حكم الفجار الى حكم الكفار " (١)

اذا فتصرف زياد بن ابيه وابنه عبيد الله بن زياد ازا شعائر الله وآل بيته  
رسول الله ، ليسا بشي بالنظر الى الكفرة الاولى التي وسمت زيادا ابنا شرعيا لابي  
سفيان فاعطته الضوء الاخضر لتلك التصرفات :

"... فهذه اول كفرة كانت في الامة . ثم لم تكن الا فمين يدعي امامتها  
والخلافة عليها ... ثم الذي كان من يزيد ابنه ومن عماله واهل نصرته ،  
ثم غزو مكة ورمي الكعبة ، واستباحة المدينة ، وقتل الحسين عليه السلام ...  
فاحسبوا قتله (٢) ليس بكفره واباحه المدينة وهتك الحرمة ليس بحجة ،  
كيف تقولون في رمي الكعبة ، وهدم البيت الحرام ؟ ... وكيف تقولسون  
في قول عبيد الله بن زياد لآخوته وخاصته : دعوني اقتله (٣) فانه بقية  
هذا النسل ، فاحسم به هذا القرن ، واميت به هذا الداء ، واقطع به  
هذه الطارة " (٤)

(١) الجاحظ ، "رسالة في النابتة" رسائل الجاحظ ، ج ٢ : ١٠ - ١١ . وانظر في  
مثالب معاوية ، الفقرة ٦٥١٨ من "رسالة في الحكمين" ، مجلة الشرق  
ولا حظ تراجع الجاحظ عن تكفير معاوية الى تفسيره وتأنيبه في الفقرة ٧٣ و٧١ من  
المجلة المذكورة .

(٢) اي الحسين .

(٣) اي علي بن الحسين .

(٤) الجاحظ ، رسالة في النابتة ، "رسائل الجاحظ" ، ج ٢ : ١٢ - ١٣

وهذا النص لا يدع مجالاً للشك بأن الجاحظ يوظف معلوماته الدينية في سبيل الانتقاص من قدر خصوم العباسيين . وإذا كان في عصر معاوية قدر من حرية الكلمة ، فإن ذلك القدر انتفى بمجيء عبد الملك بن مروان الذي أنهى عصر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالكلية :

" . . . فعبد الملك بن مروان أبو هؤلاء الملوك الذين تفتخر الاموية بهم ، أعرق الناس في الكفر . . . وحسبك من جهله تبادل شرائع الدين والاسلام وهو يريد ان يلبى امراء أصحابها بذلك الدين بعينه ! وحسبك من جهله انه رأى من ابلغ التدبير في منع بني هاشم الخلافة ان يلحق علي بن ابي طالب على منابره . . . حتى قام عبد الملك بن مروان ، وابنه الوليد ، وعاطلها الحجاج بن يوسف ، ومولاه يزيد بن ابي سلم ، فاعادوا على البيت بالهدم ، وعلى حرم المدينة بالغزو ، فهدموا الكعبة ، واستباحوا الحرم ، وحولوا قبلة واسط ، وآخروا صلاة الجمعة الى مغير بن الشمس . . . وما يدل على ان القوم لم يكونوا الا نسي طريق التردد على الله عز وجل ، والاستخفاف بالدين ، والتهبان بالمسلمين ، والابتذال لاهل الحق ، اكل امرائهم الطعام ، وشربهم الشراب ، على منابره ايام جمعهم وجموعهم . . . وذلك ان كانوا كقرا كل . . . " (١)

ويرى الجاحظ ان عراقة عبد الملك في الكفر لم تكن لكفره بالشرائع الدينية وشعائرها فقط ، وانما لكفره بسلفه وأئمة الامويين الذين اوصلوه الحكم :

" . . . وحسبك من جهله قيامه على منبر الخلافة قائلاً : اني والله ما انا بالخليفة المستضعف ، ولا بالخليفة المداهن ، ولا بالخليفة المأفون . وهوؤلاء سلفه وأئمة ، وشفعتهم قام ذلك المقام ، ويتقدمهم وتأسيسهم نال تلك الرئاسة . ولولا القادة المتقدمة والاجناد المجندة والصنائع القائمة لكان ابعد خلق الله من ذلك المقام واقربهم اليه الهلك ان رام ذلك الشرف . وعنى بالمستضعف عثمان ، وبالمداهن معاوية ، وبالمأفون يزيد بن معاوية . وهذا الكلام نقض لسلطانه وعداوة لاهله . . . " (٢)

- 
- (١) الجاحظ ، " كتاب فضل هاشم على عبد شمس " ، رسائل الجاحظ ، تحقيق السندي ، ص ٨٠ و ٩٢ " رسالة في النابتة " رسائل الجاحظ ، ج ٢ : ١٥ - ١٨
- (٢) الجاحظ ، " كتاب فضل هاشم على عبد شمس " ، رسائل الجاحظ ، تحقيق السندي ، ص ٩٢ .



هكذا نكون قد بينا ان الجاحظ في مأخذه على بني امية كان يضرب على وتسر  
العاطفة الدينية لا ايمانا بها فحسب ، وانما تزكية لمصلحة العباسيين السياسية ايضا .  
وبعد ، فان هؤلاء الامويين لم يستحقوا الخلافة بالقرابة او السابقة الى الجهاد .  
اذا لم يبق الا حق قرشيتهم " لان رواية الراوي ، الاثمة من قرش واقعة على كسل  
قرش " (١) فيبقى المأخذ الا هم للجاحظ على بني امية مأخذا دينيا - سياسيا ، لان بني  
امية اخفقوا في تحقيق حديث النبي " الاثمة من قرش " ، لسبب اوضعه الجاحظ حين  
قال " ان الرياسة في الدين لا تستحق بغير الدين والعمل الصالح " (٢) ، ولوان الواقع  
التاريخي لبني امية يناقض هذا الحديث حين اثبتوا ان الرياسة في الدين تمت لهم  
بالغصب القيصري والملك الكسروي ، اى لاسباب القهر والجبرية والغلبة التي ليست  
من الاسلام في شي . قال الجاحظ في ملك عبد الملك بن مروان :

" . . . ولولا القادة المتقدمة والاجناد المجندة والصنائع القائمة لكان ابعد  
خلق الله من ذلك المقام ، واقربهم الى الهلكة ، ان رام ذلك  
الشرف . . . " (٣)

- 
- (١) المصدر نفسه صفحة ٧٧ ونص الحديث " الاثمة من قرش " في مسند احمد  
ابن حنبل ، الباب الثالث ص ١٢٩ و ١٨٣ والرابع ص ٤٢١ . عن المعجم  
المفهرس لالفاظ الحديث النهوي ، ( مادة أم ) .
- (٢) الجاحظ ، كتاب العثمانية ، ص ٢١١ .
- (٣) الجاحظ ، " كتاب فضل هاشم على عبد شمس " ، رسائل الجاحظ ، تحقيق  
السندوي ، ص ٩٢ .

تناول الجاحظ في مآخذ علي معاصريه من عرب المجتمع العباسي، عانتهم وخصتهم . اما عامة عصره ، فقد اخذ عليها عدم طاعتها للخاصة وسلوكها المضطرب ازا' مسألة الامة ونشاطها الاعلامي ايضا .  
وفيما يتعلق بعدم طاعة العوام للخواص ، فقد رده الجاحظ الي علل واسباب كالعلل التي تعرض لجوارح الانسان . قال :

"ومقام العامة من الخاصة مقام جوارح الانسان من الانسان . . . وكما ان الجوارح لا تعرف قصد النفس ولا تروى في الامور ولم يخرجها ذلك من الطاعة للعزم ، وكذلك العامة ، لا تعرف قصد القادة ولا تدبير الخاصة ، ولا تروى معها . . . والجوارح والعوام وان كانت مسخرة ومدبرة - فقد تمتنع لعلل تدخلها ، وامور تصرفها ، واسباب تنقضها ، كاليد يعرض لها الفالج واللسان يعتربه الخرس ، فلا تقدر النفس على تسديدهما وتقويتهما ، ولو اشتد عزهما . . . وكذلك العامة عند نفورها وتهيجها ، وقلبة الهوى والسخف عليها ، وان حسن تدبير الخاصة ، وتعهد الساسة . غير ان معصية الجارحة ايسر ضررا ، واهون امرا ، لان العامة اذا انتكثت للخاصة وتتكثرت للقادة ، وتشترنت على الرضاة ، كان البوار الذي لاحيلة له ، والفناء الذي لا بقاء معه . (١) "

---

(١) الجاحظ ، "مقالة العثمانية" ، رسائل الجاحظ ، ٤ : ٣٦ - ٣٧ . والملاحظ في انتقاد الجاحظ لهذه الشريحة الهامة من المجتمع العباسي المعاصر له ، تاثر الجاحظ بالفكر اليوناني حين شبه الطبقات الاجتماعية بقوى انسانية كما فعل افلاطون مع فارق دقيق هو ان الجاحظ شبه الطبقات الاجتماعية بجوارح الانسان في حين شبهها افلاطون بالقوى النفسية كالقوة المفكرة والقوة الغضبية والشهوية . انظر : جمهورية افلاطون ، بالانكليزية :

Plato, The Republic of Plato, translated by Francis Macdonald, (Oxford : Oxford University Press) pp. 119, 129, 139.

اما سلوك العامة المضطرب ازاء مسألة الامة فمفاده ان العوام المعاصرين للجاحظ اما انهم افراطوا في التعلق بامام دون غيره او انهم لم يعوا ضرورة اقامة الامام العادل كما سنرى . قال الجاحظ في مأخذ الافراط الذي يعكس عدم اعمال الفكر في مسائل الدين ، استثقالا للتمثيل وبغضا للتحصيل واستمرارا في التقليد :

" . . . ووجه آخر يستدل به على قلة عناية الناس بامر الدين وان شأنهم تعظيم الرجال والاستسلام للسنشأ والذهاب مع العصبية والهوى والرضى بالسابق الى القلوب واستثقال التمثيل وبغض التحصيل ، ما نجد من انقياد اكثر البصريين وسوادهم لتقديم عثمان بن عفان ومن انقياد اكثر الكوفيين لتقديم علي بن ابي طالب ومن انقياد اكثر الشاميين لديين بني امية وتعظيم عثمان وحب بني مروان ، حتى غلط لذلك قوم فزعموا ان ذلك من قبل الطالع . . . ومن عمل التربة . . . وليس ذلك - اكرمك الله - الا من قبيل تقليد السلف وحب الرجال وما وقع في القلوب وهيجته المحبة ، لان تقليد الآباء هو الذي ارتهبنهم وحب الرجال هو الذي اعماهم واصمهم . . . ولو كان ذلك من قبل الطالع او التربة ، لما حسبن الامر والنهي ، ولما جاز الحمد والثواب واللائمة والعقاب ، ولما كان لارسال الرسل معنى . . . فصح ان دين الناس بالتقليد لا بالنظر ، وليس التقليد الى الحق باسرع منه الى الهاطل . " (١)

ويبدو ان الجاحظ رد اخطأ العامة الى دائرة الاختيار الانساني والهوى الشخصي فقط دون ان يكون للعوامل المادية اي اثر حتي على خطأ الانسان . واذ كان افراط اهل الكوفة والبصرة والشام في التعلق بامام دون غيره مذمة ، فان في تقصير الصنف الآخر من العوام في ادراك ضرورة اقامة الامام مذمة ايضا الى درجة ان الجاحظ عد من يجهل " معنى الامة وضرورة الخلافة الراشدة ، (٢) بانه ينتمي الى فئة العامة الغفلة ، وذلك " لاستسلامها لدواعي الهوى وتحررها من رقابة الدين وانطلاقها وراء كل ريح تهب وناشئة تنجم ، (٣) فباتت هذه الفئة لا تفصل بين فضل وجود الامة ونقص عدمها .

(١) الجاحظ ، " الاخبار وكيف تصح " ، المجلة الآسيوية ، ص ١٠١ - ١٠٢

(٢) الجاحظ ، " مقالة العثمانية " ، رسائل الجاحظ ، ٤٠ : ٣٦ .

(٣) المصدر نفسه .

وهذا الاتجاه النقدي غير بعيد عن حديث للرسول " من مات بغير امام مات ميتة جاهلية . " (١)

اما مأخذ الجاحظ الاخير على عوام عصره فهو قائم على ما بدر منها من نشاط اعلامي بات يخشى منه على تدبير الخاصة من اهل المجتمع العباسي . ولذلك نصّب الجاحظ نفسه لمعالجة هذا الصنف من العوام الذين " لولا ان لهم متكلمين ، وقصاصا متفقيهم . . . لم يلحقوا بالخاصة ، ولا بأهل المعرفة التامة . ولكننا كما نخافهم نرجوهم ، وكما نشفق منهم نطمع فيهم . " (٢) لقد خشي الجاحظ منهم لان نشاطهم الكلامي اصبح يولف خطارا قد يلون الواجهة الفكرية السياسية لمبادئ المعتزلة الثابتة . لذلك السبب ، خطّ الجاحظ رسالته " في نفي التشبيه " ووجهها الى القاضي أبي الوليد محمد بن ابي دؤاد (٣) يعبر فيها عن ثورته على كيفية سماح المعتزلة باختراق صفوفهم على يد سفلة القوم من رؤساء العوام " . . . الذين اشعلوا فتنة واضرموا نارا " (٤) حين اندسوا في صفوف المعتزلة واصبحوا بناصرهم المستهدثة خطرا على مبادئ الخاصة . قال الجاحظ :

" . . . فكيف صاروا في باطلهم ايام قدرتهم اقوى منا في حقنا ايام قدرتنا ؟ " (٥)

---

(١) انظر مسند احمد بن حنبل ٤ : ٩٦ ، عن المعجم المفهرس لالفاظ الحديث النبوي .

(٢) الجاحظ ، "رسالة في نفي التشبيه" ، رسائل الجاحظ ، ١ : ٢٨٥ .

(٣) الرسالة موجهة له كما ذكرنا ، لا لوالده احمد بن ابي دؤاد لان الاخير - صاحب

القول بخلق القرآن ايام المعتصم والواثق - كان اكثر ليونة مع رؤساء العامة .

فاستغل الجاحظ حمية الشباب التي في ابنه ، كي يستطيع دفع مصالح

المعتزلة التي واجهها بلاء العوام والشبهة . انظر : الجاحظ ، "كتاب صناعة

الكلام" ، رسائل الجاحظ ، ٤ : ٢٤٣ .

(٤) الجاحظ ، "مقالة العثمانية" ، رسائل الجاحظ ، ٤ : ٤١ .

(٥) الجاحظ ، "رسالة في نفي التشبيه" ، المصدر نفسه ، ١ : ٢٨٧ .

والخطر ثابت لانه " على العلماء ان يخافوا دول العلم كما يخاف الطسوك  
دول الطك " (١) وبمت الداء ان للعوام رؤسا . قال الجاحظ :

" . . . والعوام - ابقاك الله - اذا كانت نشرا ، فامرها امير ومسددة  
هيجها اقصر . فاذا كان لها رئيس حاذق ومطاع مدبر ، وامام مقلسد ،  
فعند ذلك ينقطع الطمع ، ويموت الحق ، ويقتل الحق . . . . (٢)

وقد رأى الجاحظ ان في منازعة العوام للخاصة ، الكلام في " القدر والاستطاعة  
والتكليف " بلاء لا يخفى على احد ، خصوصا انه معني بتوجيه رجال الدولة العباسية ، فلم  
يسكن التفاضلي عن البلاء المتشل في روية كل انسان من المسلمين نفسه متكلما (٣) . قال :

" . . . ولو نطق عالم بحرف في القدر حتى يذكر العلم والشية ، والتكليف  
والاستطاعة ، وهل خلق الله تعالى الكفر وقدره اولم يخلقه ولم يقدره ،  
لم يبق حمال اغثر ، ولا بطل غث ، ولا حامل غفل ، ولا غبي كهام ، ولا جاهل  
سفيه ، الا وقف عليه ولا حاه وصوبه وخطاه . . . . (٤)

ولذلك صب الجاحظ فضبه على عامة عصره حتى يخال القارى ان الجاحظ يقصد  
عرب الجاهلية لا عرب المجتمع العباسي وذلك لاشتراكهم في العيوب الجاهلية . قال :

" وضرب آخر من الناس : هيج هامج ورعاع منتشر ، لانظام لهم ،  
ولا اختبار (٥) عندهم ، اعراب اجلاف ، واشباه الاعراب ، يفترقون مسن

- 
- (١) الجاحظ ، " كتاب خلق القرآن " ، المصدر نفسه ، ج ٣ : ٣٠٠ .  
(٢) الجاحظ ، " رسالة في نفي التشبيه " ، المصدر نفسه ، ج ١ : ٢٨٤ - ٢٨٥ .  
(٣) الجاحظ ، " رسالة الرد على النصارى " ، رسائل الجاحظ ، ٣ : ٣٢٠ .  
(٤) الجاحظ ، " مقالة العثمانية " ، رسائل الجاحظ ، ٤ : ٤٠ - ٤١ . والجدير بالذكر  
ان الجاحظ لم يكن يخشى على القاضي ابن ابي دواد من العامة فحسب وانما  
خشي ايضا على الخليفة المعتمد الذي اخذت مجالسه يفسها اولئك الفضلون  
من العوام ، خاصة وان المعتمد في نظر الجاحظ لم يكن يتمتع بالقوة التي كانت  
للسامون في دفاعه عن مصالح المعتزلة وحماية فكرها الديني من هجمة العامة عليها .  
(٥) وردت بلفظ " اختبار " ايضا . انظر " كتاب استحقاق الامة " ، رسائل الجاحظ ،  
٤ : ٢١٢ .

حيث يجتمعون ، ويجتمعون من حيث يفترقون ؛ لا تدفع صولتهم اذا  
هاجوا ولا يوفون هيجانهم اذا سكنوا . ان اخصبوا طغوا في البلاد وان  
اجدبوا آثروا العناد . هم موكلون ببغض القادة ، واهل الثراء والنعمة ،  
يتمنون النكبة ، ويشمتون بالعثرة ، ويسرون بالجوالة ، ويترقبون الدائرة .  
وهم كما وصفوا ، الطغام والسفلة وقال علي بن ابي طالب رضي الله عنه  
في دعائه : " نعوز بالله من قوم اذا اجتمعوا لم يملكوا ، واذا افترقوا  
لم يعرفوا . " فهو " لا " ، هو " لا " ! (١)

اي ان هو " لا " الذين ذكرهم علي بن ابي طالب وتوجس منهم ، هم الاعراب  
انفسهم والعوام الضالون في عصر الجاحظ . وبالتحديد هم ذلك الصنف المتفوق  
المدعو " بالناطقة والمشبهة " (٢) الذي فزا مجالس المعتزلة بسلطانه الكلامي المستحدث ،  
بعد ان رفض القول بخلق القرآن ، ولذلك فهم كما قال الجاحظ " دائبون في التأسيم  
بين المعتزلة ، عدد هم كثير ونصيبهم شديد ، والعوام معهم والحشويط معهم " (٣)  
ذكرنا مأخذ الجاحظ في عامة عصره ، اما مأخذه في خاصة عصره فيعكسها قوله  
التالسي الذي يحصر مشاكل المجتمع العباسي في العلاقة غير المتحققة بين  
العامة والخاصة وبالتحديد في تدبير الخاصة وطاعة العامة لها . فاذا كانت العامة

- 
- (١) انظر الجاحظ ، " مقالة الزيدية والرافضة " ، رسائل الجاحظ ، ٤ ، : ٣١٤ - ٣١٥ .  
وقد تكرر النص بصيغ سائلة في " كتاب استحقاق الامة " ، المصدر نفسه ، ٤ :  
٢١٢ ورسالة في نفي التشبيه " المصدر نفسه ، ١ : ٢٨٣ .
- (٢) للجاحظ رسالة خاصة في النابغة ضمن رسائل الجاحظ ، ج ٢ ، ٣ : ٢٥ - وهي  
الفة صاحبة المأخذ اعلاه التي قرنها الجاحظ بالعوام ( المصدر المذكور ص ٢٠ )  
وبالبتدعة ( ص ١٢ و ١٤ ) . وبالرافضة ( ص ١٨ ) . وقد كتب الجاحظ هذه  
الرسالة في هذه الفة التي كانت تضاد الفكر المعتزلي والسياسة العباسية وتساند  
الامويين والحنايكة مستخدمة في ذلك كله " الكلام " . راجع :
- Charles Fellat, *The life and works of Jāhiz*, translated  
by D.L. Hawke, (University of California press, 1969),  
p. 18.
- (٣) الجاحظ ، " كتاب في خلق القرآن " ، رسائل الجاحظ ، ٣ : ٣٠٠ .

- كما تقدم - لا تطيع الخاصة ، فان المشكلة مضاعفة لان الخاصة ، وهي العلاج الباقي كما هو الجاحظ ، بحاجة الى تصويب بعد ان اتخمت بالاسباب وافتقرت الى التدبير . قال الجاحظ :

\* صلاح الدنيا وتام النعمة في تدبير الخاصة وطاعة العامة . كما ان كمال المنفعة وتام درك الحاجة بصواب قصد النفس . . . فالخاصة تحتاج الى العامة كحاجة العامة الى الخاصة ، وكذلك القلب والجراحة ، وانما هم جند للدفع ، وسلاح للقطع . . . ولهم في الأعمال اقل من الاختيار ولا في الاختيار اقل من الصواب . فلهاب كل عمل اختياره ، وصفوة كل اختيار صوابه . ومع كثرة الاختيار يكثر الصواب ، واكثر الناس اختيارا اكثرهم صوابا ، واكثرهم اسبابا موجبة اقلهم اختيارا ، واقلهم اختيارا اقلهم صوابا . \* (١)

ولعل الجاحظ يقصد بكثرة الاسباب الداء الذي غزا العرب التي لم يكن لها من الاسباب ما توفر للعباسيين الذين ابطرتهم اسباب الملكية والترف وتعرضوا لسختلف مظاهر الغزو الحضاري والثقافي الفارسي . ولقد اشار الجاحظ الى ذلك حين قال :

\* . . . دولة بني العباس عجمية خراسانية ، ودولة بني مروان عربية اعرابية . . . \* (٢)

فهذا القول قد يكون اطلقه الجاحظ بسبب ملاحظته انتشار الظاهر والراسم الفارسية في البلاط والمجتمع العباسي ، كانعزال الخليفة عن الرعية ووجود الجلاد وغيرها من المظاهر التي تؤكد سلطة الخليفة واستبداده . وكان الجاحظ لم يملك الا التذمر من هذه المظاهر التي تمثل تحديا لمجتمع النبوة والخلافة الراشدة . قال الجاحظ :

\* قد يستخر الله الملك لقوم باسباب قديما واسباب حديثة ، فلا يزال الملك مقصورا عليهم ، ما رامت تلك الاسباب قائمة ، ان كانوا للملك مستخرين ،

(١) الجاحظ ، "مقالة العثمانية" ، رسائل الجاحظ ، ٤ ، ٣٧ - ٣٨ .

(٢) الجاحظ ، "البيان والتبيين" ، ٣ : ٣٦٦ .

وكان الناس لهم مسخرين بالجبرية والنخوة ، والفظاظة والقسوة ، ولطول الاحتجاب والاستتار ، وسوء اللقا ، والتضييع . (١)

فالجاحظ يأخذ على العباسيين استتارهم عن الناس - وان لم يجروا على تسميتهم - الا بالاشارة على انهم قوم سخر الله لهم الملك باسباب قديمة ، هي نبوة محمد ، واسباب حديثة هي التي عددها اعلاه .

ويظهر انزعاج الجاحظ الضمني من ظاهرة الاستتار والحجاب لدى الخلفاء العباسيين من خلال تخصيصه رسالة كاملة في هذا الموضوع ، دار معظمها في خبر من عوتب على احتجابه . وقد لمح الجاحظ الى محاولات اصلاح هذه الظاهرة فنسد الملوك حين قال : " ان الملوك اذا اتت ما يجمل من المعاتبة ضربت لها الامثال وعرض لها بالحديث . . . وان السعيد من وعظ بغيره " (٢) فالجاحظ مدرك للهوة الفاصلة بين مثالية عهد النبوة وبين عجية عهد بني العباس ومع هذا فهو لم يأل جهدا في التوجيه والاصلاح فاستهل رسالته في الحجاب بما ورد في الاثر في النهي عنه :

" . . . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : " ثلاث من كن فيه من الولاة اضطلع بامانته وامره : اذا عدل في حكمه ، ولم يحتجب دون غيره ، واقام كتاب الله في القريب والبعيد . . . ويوصي عمر عماله فيقول : اياكم والحجاب ، واظهروا امركم بالبراز . . . وكتب عمر رضوان الله عليه الى معاوية وهو عامله على الشام : " اياك والاحتجاب دون الناس ، وأذن للضعيف وادنه حتى ينسبط لسانه ويجترى قلبه . . . " (٣)

هايراد رأى الجاحظ الناقد لسلوك الخاصة والعامة من معاصريه من عرب المجتمع العباسي نكون قد انهينا عرض القسم المتعلق بآخذه في عرب الجاهلية وصدرا الاسلام وعرب الدولة الاموية والعباسية .

(١) الجاحظ ، " رسالة حجج النبوة " ، رسائل الجاحظ ، ٣ : ٢٤٥ .

(٢) الجاحظ ، " كتاب الحجاب " ، رسائل الجاحظ ، ٢ : ٢٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ٢ : ٣٠ - ٣١ .



من يدرس اقوال الجاحظ في غير العرب يلحظ ان جمعة الجاحظ مسن الفضائل اتسعت لتشمل اما غير عربية لم يخف الجاحظ اعجابه بها او تقديره لها . فالعرب وان كانت استأثرت بالرسالة ، فان ذلك لم يعن في نظره استثارتها بجملة الخيرات المفاضة من الله على جميع الخلق لانه من باب العدل ان يكون لهذه الامم نصيب في هذه الخيرات والسناقب . قال :

" . . . واهي الله الا ان يقسم نعمه بين طبقات جميع عباد قسمة عدل ؛ يعطي كل قرن وكل امة حصتها ونصيبها ، على تمام مراشده الدين ، وكمال مصالح الدنيا . " (١)

بيد انه تجدر الاشارة الى ان الجاحظ فتح عينيه على مناقب الامم بالقدر الذي يصب في مصلحة الخلافة العباسية . فهو يرى ان العباسيين في حكم من اقبلت الدنيا عليه بمحاسن غيره وبالتالي فان محاسن الامم المعتمدة التي ظلت تنتقل بين الامم الى ان ورثها العرب خاضعة الى نوع من التسخير اعطاها دورا وظيفيا آخر غير الدور المحلي المعهود ، هو رفادة الخلافة العباسية وترسيخ فضلي الملوك والنبوة (٢) المجتمعين فيها . وقد لاحظ الجاحظ ان خيرات الامم هذه تتميزز بالاختصاص الحضاري الذي يسم كل امة باسهام حضاري معين يغلب عليها كاختصاص " اهل الصين في الصناعات ، واليونانيين في الحكم والآداب ، والعرب فيما نحن ذاكره في موضعه ، وآل ساسان في الطك ، والاتراك في الحروب " (٣) وهي مزايا حضارية مقدّر لها ان تصب في بوتقة الخلافة العباسية ، التي ما كانت لتبلغ ذلك الفضل لو لم تسبقها الامم اليه . قال الجاحظ :

- 
- (١) الجاحظ ، " كتاب في الوكلاء " ، رسائل الجاحظ ، ج ٤ : ١٠٣ .  
(٢) انظر : الجاحظ ، " رسالة في النابتة " ، رسائل الجاحظ ، ج ٢ : ٢١ .  
(٣) " رسالة في مناقب الترك " ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٦٧ .

وقد نقلت كتب الهند وترجمت حكم اليونانية ، وحولت آداب الفرس .. من امة الى امة ومن قرن الى قرن ومن لسان الى لسان ، حتى انتهت اليها وكنا آخر من ورثها ونظر فيها . . . ولولا ما اودعت لنا الاوائل في كتبها ، وخلصت من عجب حكمة ، ودونت من انواع سيرها ، حتى شاهدنا بها ما غاب عنا ، وفتحنا بها كل مستغلق كان علينا ، فجمعنا الى قليلنا كثيرهم ، وادركنا ما لم نكن ندركه الا بهم ، لقد خس حظنا من الحكمة ، ولضعف سببنا الى المعرفة . ولولجأنا الى قدر قوتنا ، ومنتهم تجارينا . . . لقلت المعرفة وسقطت الهمة . . . ولكل الحد وتبلسد العقل . (١)

---

(١) الجاحظ ، كتاب الحيوان ١٠ : ٨٥٧٥-٨٦ . ويذهب بعض الدارسين الى عد الجاحظ اول من عبر عن مفهوم انتقال حكم الامم الى العقل العربي من خلال انتقاله التدريجي المسبق من امة الى امة . انظر :

Tarif Khalidy, Islamic Historiography, (Albany: State University of New York Press, 1975) p. 82.

وانظر ايضا :

Franz Rosenthal, Technique & Approach of Muslim Scholarship (Rome: Pontificium Institutum Biblicum, 1947), p. 71.

## الفصل الثاني

=====

### الهند

=====

#### مناقب الهند :

لقد لخص الجاحظ اسهام الهند الحضارى ، وخاصة في الحساب والطب والخط والادب بقوله :

\* واما الهند فوجدناهم يقدمون في النجوم والحساب ، ولهم الخط الهندى خاصة ، ويقدمون في الطب ، ولهم اسرار الطب وعلاج فاحش الادوية خاصة . ولهم خرط التماثيل ونحت الصور بالاصباغ تتخذ فسي الحاربي (١) واشباه ذلك . ولهم الشطرنج ، وهي اشرف لعبة واكثرها تدبيرا وفطنة . ولهم السيوف القطعية (٢) ، وهم ألعب الناس بها واحذقهم ضربا بها . ولهم الرقى النافذة في السموم وفي الاجاع . ولهم غناء معجب . ولهم الككلكة ، وهي وتر واحد يمد على قرعة فيقوم مقام اوتار العود والصنج . ولهم ضربوب الرقص والخفة ، ولهم الثقافة عند الثقاف خاصة (٣) ، ولهم معرفة المناصفة (٤) ، ولهم السحر والتدخين والدمازكية (٥) . ولهم خط جامع لحيروف اللغات ، وخطوط ايضا كثيرة . ولهم شعر كثير وخطب طوال ، وطب في الفلسفة والادب . وعنهم اخذ

- 
- (١) ورد النص نفسه في موضعين : " كتاب فضل السودان على البيضان " ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٢٢٣ - ٢٢٤ و" كتاب الاخبار وكيف تصح " ص ٩٧ . مع فروقات بسيطة في الالفاظ . والجملة المذكورة وردت في الوضوع الثاني : " مع التصوير بالاصباغ كزى الحاربي " ص ٩٧ .
  - (٢) السيوف القطعية نسبة الى القطعة ، وهي قلعة عظيمة ببلدة تسمى " كله " وهي اول بلاد الهند من جهة الصين وفيها تضرب السيوف القطعية . والجملة نفسها وردت في " كتاب الاخبار وكيف تصح " ولهم صنعة السيوف الهندية ص ٩٧ .
  - (٣) الثقاف حديدية او خشبية تكون مع القواس والرماح يقوم بها ما اعوج من الرماح . انظر : ابن منظور " لسان العرب " مادة ثقف .
  - (٤) لم اهتم الى مدلولها في المعاجم .
  - (٥) الدمازكية او النرمازكية كما يقول المحقق عبدالسلام هارون ، ضرب من اللعوق الطبي . انظر " كتاب فخر السودان على البيضان " رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٢٢٣ .

كتاب كريمة ودمنة . ولهم رأى ونجدة . وليس لاحد من اهل الصبر ما لهم (١) . ولهم من الرى الحسن والاخلاق المحمودة مثل الاخلاصة والقرن والسواك ، والاحتيا ، والفرق والخضاب . وفيهم جمال وملح واعتدال وطيب عرق . والى نسايتهم يضرب الامثال . ومن عندهم جاه والسطوك بالعود الهندى الذى لا يعدله عود . ومن عندهم خرج علم الفكر ، وما اذا تكلم به على السم لم يضر (٢) . واصل حساب النجوم من عندهم ، اخذه الناس خاصة . وآدم عليه السلام انا هبط من الجنة فصار ببلادهم (٣) .

هذه هي جملة المناقب التي وجدها الجاحظ في امة الهند ، وهي مناقب تعكس التفاعل الثقافي والتجارى السائد بين المجتمع الهندى والمجتمع العربى . اما التفاعل الثقافى فواضح من اقراره بفضل الهند في علوم الطب والحساب والتأليف القصصى وطم الفلك . اما التفاعل التجارى فيظهر من معرفة الجاحظ بالسيف الهندية وآلات عزفهم وتسليتهم المعروفة بالكنكة ، ناهيك عن العود الهندى ذى الرائحة الطيبة .

- 
- (١) نسب الجاحظ سمة الصبر من قبل للعرب والترک واصناف السودان .  
(٢) لعل الجاحظ يقصد بذلك عادة الهند في التأمل الفكرى مع ما يتطلبه من مقامات واحوال . انظر مادة " ستر " في :

- Encyclopaedia of Religion, s.v. "Sutra and Sastra Literature," by Ludo Rocher.  
- The Ramakrishna Mission Institute of Culture, Cultural Heritage of India, (Calcutta, 1958), 1: 243-245.

ولعله يقصد ايمانهم بالرقى والتعاون والتعاوى والعزائم . راجع في ذلك : البيرونى ، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل او مردولة ، ( الهند : حيدرآباد الدكن ، مجلس دائرة المعارف العثمانية ، ١٩٥٨ ) خاصة الفصل المتعلق بهذا الموضوع ص ١٥٤-١٥٥ . وانظر ايضا : الجاحظ " كتاب الحيوان " ، ٤ : ١٤٨ .

(٣) اشار الى ذلك ايضا ابوحيان في تفسيره : البحر المحيط ( القاهرة : دار السعادة ، ١٣٢٨ ) ١ : ١٦٣ . بيد ان شارل بلا رأى ان المسلمين قالوا ان آدم حين نزل الارض انا نزل ببابل . انظر : كتاب الترميز والتدوير ، فقرة ٦٤ .

وقد خصّ الجاحظ ما لعلم الخطوط والحروف الهندية من فضل على علوم  
الفكر وبالتالي ما أسهمت الحضارة الهندية في الحضارة الانسانية . قال الجاحظ فسي  
ذلك :

\* ولولا خطوط الهند لضاع من الحساب الكثير والبسيط ، ولبطلت  
معرفة التضاعيف ، ولعدوا الا حاطة بالباورات (١) وباورات الباورات ، ولو  
ادركوا ذلك لما ادركوه الا بعد ان تغلظ المؤونة وتنتقض السنة ولصاروا  
في حال معجزة وحسور والى حال مضيعة وكلال حد . . ونفع الحساب  
معلوم ، والخلة في موضع فقدته معروفة . قال الله تعالى : الرحمن علم  
القرآن ، خلق الانسان ، علمه البيان . ثم قال : الشمس والقمر بحسبان (٢) .  
وبالبيان عرف الانسان القرآن . وقال الله تعالى : هو الذي جعل  
الشمس ضياءً والقمر نورا ، وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب (٣) .  
فاجرى الحساب مجرى البيان بالقرآن . وبحسبان منازل القمر ، عرفنا  
حالات المد والجزر ، وكيف تكون الزيادة في الأهلة وانصاف الشهور ،  
وكيف يكون النقصان في خلال ذلك ، وكيف تلك المراتب وتلك الاقدار . .  
فأي نفع اعظم وأي مرفق اعون من الخط والحال فيه كما ذكرنا . ولسولا  
الكتب المدونة والاخبار المخلدة والحكم المخطوطة التي تحصن الحساب  
وغير الحساب ، لبطل اكثر العلم ولقلب سلطان النسيان سلطان الذكر  
ولما كان للناس مفعز الى موضع استدكار . . . (٤)

---

(١) لم اعثر على معنى هذا اللفظ في تفسير البيروني لنظام الهند الحسابي . انظر :  
البيروني ، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة . . ص ١٣٢ - ١٤٣ . ولكن  
الاستشرق شارل بلا قال في تفسيره لهذه الكلمة في ادب الجاحظ انها تعكس  
يد معرفة الرياضيين العرب بالنظام الحسابي لدى الهند ، وبالتحديد ، النظام  
العشري . وفهم الاستشرق ان الباورات هي تلك المذكورة في كتاب البيروني  
بصيغة البهوري ( Bhuri ) وانها تدل على الرقم ١ مضاعفا ثمانى عشرة  
مرة . ( 10<sup>18</sup> ) انظر : الجاحظ ، " كتاب التريج والتدوير ، تحقيق بسلا ،  
الفقرة ٣٧ ص ٢٥ و ص ١١٣ . وقد ذكر الجاحظ ان " العكان " هو الكثير الذي  
لا يكون فوقه عدد . راجع : الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٦ : ٢٣٠ .

(٢) الرحمن : ١

(٣) يونس : ٥

(٤) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ١ : ٤٦ - ٤٨ .

وما خص الله به الهند في نظر الجاحظ ان على ارضها الحيوانات التالية ،  
كالغيل والبهير والطاوس والبهغا والدجاج السندي والكركدن . قال :

" والهند اصحاب البهير والغيول كما ان النوبة اصحاب الزرافات  
دون غيرهم من الامم . واهل فانة انما صار لباسهم جلود النور لكثرة  
النور بها الا انها على حال موجودة في كثير من البلدان . . . اما الغيل  
والبهير والطاوس والبهغا والدجاج السندي والكركدن ما خص الله  
به الهند . " (١)

واورد الجاحظ نظرية لغوية للهند في سبب اختلاف اللغات . قال :

" وتزعم الهند ان سبب ما له كثير كلام الناس واختلفت صور الفاظهم  
ومخارج كلامهم ، ومقادير اصواتهم في اللين والشدة وفي المد والقطع ،  
كثرة حاجاتهم . ولكثرة حاجاتهم كثرت خواطرم وتصاريف الفاظهم ، واتسعت  
على قدر اتساع معرفتهم . قالوا : فحوائج السنانير لا تعد وخسة اوجه :  
منها صياحها اذا ضربت ولذلك صورة . وصياحها اذا دعت اخواتها  
والآفها ، ولذلك صورة . وصياحها اذا دعت اولادها للطعم ، ولذلك  
صورة . وصياحها اذا جاءت ، ولذلك صورة . فلما قلت وجوه المعرفة  
ووجوه الحاجات ، قلت وجوه مخارج الاصوات . واصواتها تلك فيما بينها  
هو كلامها . " (٢)

والجدير بالذكر ان الجاحظ عدّ الهند من جنس السودان الذين يفضلون  
البيضان في نظره ، بالخصائص المذكورة آنفا وخاصة التي وردت في رسالة فضل السودان  
على البيضان . وان " السندي " في مفهوم الجاحظ غير الهندي لان الاول وان كان  
من السودان ، ويسكن قرب بلاد الهند فقد عدّه الجاحظ من " الاجناس الذليلة " (٣) ،  
وبالتالي هو بعيد عن الامم المعتمدة وترك معالجته الى حينه من الرسالة (٤) . ولا نجد

(١) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٧ : ١٣٤ و ١٧٠ .

(٢) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٤٤ : ٢١ - ٢٢ .

(٣) المصدر نفسه ، ٦ : ٧١ وكتاب التربيع والتدوير ، الفقرة ٤٧ .

(٤) في الفصل المتعلق بمطالب السودان ، وذلك في الباب الثاني من الرسالة .

في سائر كتابات الجاحظ في مناقب الهند الا اشارات بسيطة كالتى تعكس اعجابه  
بقول في الحكمة لطك هندی (١) او بتتبع الهند بخلق الحنين الى الاوطان (٢).

- 
- (١) كاستشهاده بقول لطك هندی: " اذا تكلمت بكلمة ملكتني ، وان كنت املكها ."  
انظر الجاحظ في المحاسن والاضداد ، ص ١٨ .
- (٢) الجاحظ ، " رسالة في الحنين الى الاوطان " ، رسائل الجاحظ ، ٢ : ٣٨٥ .

اما الذي اخذه الجاحظ على الهند فهو انهم يجمعون الى الحكمة في دنياهم ، جهلا عظيما في امور دينهم . قال :

" . . . وهم مع ما ذكرنا ، اصحاب بدعة ، ( وهي جمع بد والبد الصنم ) ينحتونها بأيديهم ثم يعيدونها ويجعلون لها بيوتا كمساجد المسلمين وفيها بنات رؤسائهم موهوبة لتلك البدعة (١) على وجه التقرب بها والنذور والكفارات ؛ وتلك النساء واقفة للفساد والفجور يأمرها اهلها بذلك ويرون ان لهم فيه اجرا عظيما ، ولهم عباد ورهبان في تلك البيوت متجردون عن اللباس ، يدعون الزهد في الدنيا ، لايسون الماء ويتبركون باوساخهم ، ويختبرونهم بتلك النساء وملاعبتها . فمن اشتاق من اولئك العباد الى تلك النساء وهاج ، فقد كسر كفرا عظيما واتى باعظم منكر والحقوق انواع العذاب والنكال وقتلوه . هذا نسي الزهاد خاصة ، فاما غيرهم فلا ينكرون عليهم الفجور بتلك النساء . وانا اشتاق الهند الى زيارة موتاهم اضرموا النيران وحملوا معهم الهدايا واللطائف وتضمخوا بالصندل وتكفئوا ورموا بانفسهم في تلك النيران ويزعمون انهم يرجعون الى اهلهم اذا قضا وطرا من زيارة موتاهم . وهذا عجيب في جمع الهنديين الحكمة في دنياهم والجهل العظيم في دينهم . " (٢)

(١) البدعة هي الاصنام ويبدو ان الجاحظ قد ألف كتابا في هذا الموضوع دعاه " كتاب الاصنام " ذكره في جملة مؤلفاته التي عدّها في مقدمة كتاب الحيوان ١ : ٥ ، ساوى فيه في النقد بين العرب والهند على انهم عباد البسدة ووجه الشبه بينهما في رأيه " ان عباد البدعة المتسكين بعبادة الاوثان المنحوتة والاصنام المنجورة ، اشد الديانين الفا لما دانوا به وشفقا بما تعبّدوا له واظهرهم جدا واشدهم على من خالفهم ضغنا ، وبما دانوا ضنا . " كتاب الحيوان ١ : ٥ . اى ان العرب والهند لايتنازلون بسهولة عن اصنامهم لشدة سيطرة التقليد على عقولهم . وكلمة البدعة ( بكسر الباء وفتح الدالين ) التي استعملها الجاحظ هي من الكلام الفارسي المعرب . مفردا البد اى الصنم ونسي القاموس انه معرب ببت . انظر الجواليقي : المعرب من الكلام الاعجمي على حروف المعجم ، تحقيق احمد شاكر ( القاهرة : دار الكتب المصرية ، ١٣٦١هـ ) ص ٨٣ . وقد اشار الجاحظ الى مسألة عبادة الاصنام لدى الامم في كتاب التربيع والتدوير فقرة ١٣٤ ص ٧٦ .

(٢) الجاحظ ، كتاب " الاخبار وكيف تصح " ، ص ٩٨ . وانظر ايضا رسالة الجاحظ في الحكمين " ، مجلة المشرق ، ص ٤٧٣ .





والفضة المائعة ، يجمدان اذا صارا في جوف الانسان ، واذا جمدا  
لم يجاوزا مكانها - لكنا من القوائل بالخرابة ... " (١)

وقد ساوى الجاحظ في انفاق السجوس على بيت النار وفي انفاق الهندس  
على سدنة البددة من جهة ، وبين انفاق الزنادقة على تحسين كتبهم الذي وصل  
حد المغالاة . (٢) اما ظاهرة الاستيحاش وادعاء الهند مخاطبة الجن لهم ، مع  
تغنى سدنتهم في خداع الناس فمما اخذه الجاحظ على هذه الامة ايضا . قال :

" . . . وكانت لسدنة الهند حيل وألطف لمكان التكسب . ولو سمعت  
اورايت بعض ما قد اعد الهند من هذه المخاريق في بيوت عباداتهم ،  
لعلمت ان الله تعالى قد من على جملة الناس بالمتكلمين ، الذين قد  
نشأوا فيهم . " (٣)

- 
- (١) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٤٤ : ٣١٩ .  
(٢) المصدر نفسه ، ١ : ٥٥-٥٦ .  
(٣) المصدر نفسه ، ٦ : ٢٠١ والمخاريق يراد بها تلك الالاعيب التي يلجأ اليها  
المشعوذون واحداها مخراق . انظر الحيوان ، ٤٤ : ٣٧٨ . هذا مع العلم ان  
الجاحظ يرى هلاك المتكلمين لولا المعتزلة . انظر المصدر نفسه ، ٤٤ : ٢٨٩ .

## الفصل الثالث

=====

### الفرس

=====

#### مناقبة الفرس :

عَدَّ الجاحظ الفرس من الامم المعتمدة اي من الامم التي عليها المعتمد فسي العقل والبيان والرأى والادب والاختلاف في الصناعات " (١) وقد اوجز مناقبها بقوله :

"... ثم ملنا الى فارس ، فوجدنا هناك العقول التي لا تبلغها عقول  
والاحلام التي لا تشبهها احلام ، والسياسة العجيبة والملك المؤيد  
بتدبير الامور والعلم بالعواقب... " (٢)

ولم يخف الجاحظ اعجابه بالاقوال الحكيمة الفارسية ، التي استشهد بها فسي كتاباته ، قال :

"... وقال حكيم الفرس حين بلغه موت الاسكندر وهو قاتل دارا بن دارا : ما ظننت ان قاتل دارا يموت. وهذا القول هو امدح منه لقاتله . ولم اسمع للعجم كلمة قط امدح منها ، واما العرب فقد اصبت لهم من هذا الضرب كلاما كثيرا... وقال بهرام ، وقد سمع في الليل صوت طائر فتحناه يسهم وهولا يراه ، الا انه تتبع الصوت فصرعه فلما صار بين يديه قال : والطير ايضا لو سكت كان خيرا له... وقال ديوست المغني لكسرى حين امر بقتله ، لقتله تلميذه بلهيد : قتلت انا بلهيد وتقتلني فمن يطربك؟ قال : خلوا سبيله ، فان الذي بقي من عمره هو الذي انطقه بهذه الحجة... وقال اردشير : احذروا صولة الكرم اذا جاع واللحم اذا شبع... " (٣)

---

(١) الجاحظ ، " كتاب الاخبار وكيف تصح ، المجلة الآسيوية ، ص ٩١ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٠٠ .

(٣) انظر : الجاحظ ، " رسالة في نفي التشبيه " ، رسالة الجاحظ ، ج ١ : ٣٠٤ ورسالة كتمان السر وحفظ اللسان ، " المصدر نفسه ، ج ١ : ١٦٢ ورسالة في الجد والهزل " ، المصدر نفسه ، ص ٢٥٨ ، والبيان والتبيين ، ج ٢ : ١٦٩ . وبهرام هو اسم لعدة ملوك من الفرس اشهرهم بهرام جور بن يزيد جرد ، ملك ثلاثا وعشرين سنة ونشأ عند ملوك الحيرة كما قال السعدي في التنبيه والاشراف ( بيروت : مكتبة =

وقد حفل كتاب المحاسن والاضداد بطائفة من اقوال الحكمة الفارسية هذه ،  
قال الجاحظ :

" . . . قال الكسروي : وقع كسرى بن هرمز الي بعض المحبسين  
من صبر على النازلة كان كمن لم تنزل به . . ومن أكل بلا مقدار ، تلفت  
نفسه . . وقال بهرام جور : " من احب ان يعرف فضل الجود على سائر  
الاشياء فلينظر الي ما جاد الله به على الخلق من المواهب الجليلة  
والرغائب النفيسة والنسيم والريح كما وعدهم الله بالجنان ، فانه لولا رضاه  
الجود لم يصطفه لنفسه . " وقال بزرجمهر : " من انتظر بمعرفة شسكر  
عاجل المكافأة . " ووجد في كتاب من كتب بزرجمهر صحيفة مكتوب فيها :  
" ان حاجة الله الي عبادته ان يعرفوه ، فمن عرفه فلم يعصه طرفعين . . " (١)

ومن مناقب الفرس ما ذكره الجاحظ من اخلاق ملوك الفرس في الصيد ، قال :

" . . . وزعموا ، وكذلك هو في كتبهم - ان ملوك فارس كانت لهجة بالصيد ،  
الا ان بهرام جور هو المشهور بذلك . . . كان الملك من الاكاسرة اذا  
اصطاد عيرا وسه باسمه ، ويومه الذي اصطاده فيه ، واطلقه ، فان تهيأ  
ان يصطاد ذلك العير بعينه ملك من بعده ، وسه مع وسم الملك  
الذي قبله بمثل تلك السمة وخلاها يذهب . . . فعرف آخرهم صنيع  
اولهم ، وعرفوا مقدار مقادير اعمارها . . . " (٢)

وقد اشار الجاحظ بحسن ادارة الفرس في توزيعهم الاعمال على ذوى الاختصاص

قال :

" . . . ولم يجعلوا للصانع ان ينتقل عن صناعته الي الكتابة ، ولم يجعلوا  
للكتاب ان ينتقل من كتابته الي القيادة ، ولم يجعلوا لابنائهم الا مشغل

---

( = ) خياط ، ( ١٩٦٥ ) ، ص ١٠١ وانه " كان فصيحاً بالعربية وله بها شعر صالح " . واما  
كسرى المذكور فهو كسرى ابرويز بن هرمز احد ملوك الساسانيين في عهد بعثة  
النبي محمد . اما اردشير بن بابك فكانت الفرس تعول على تاريخ ملكه في تاريخ  
سنواتها وتحصيل ايام ملوكها . انظر المصدر نفسه ، ص ١٢٢ . و اردشير بن  
بابك المذكور هو اول ملوك الساسانية ، فهو ابن بابك بن ساسان . ملك اربع عشرة  
سنة ثم سلم الملك الي ولده سابور . وكان اردشير افلاطوني المذهب . انظر المصدر  
نفسه ، ص ١٠٠ .

(١) الجاحظ ، المحاسن والاضداد ، ص ٦٣٣ و ٥٤٥ و ٥٩٥ .

(٢) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ١ : ٤٠ و " كتاب في البغال " رسائل الجاحظ ، ٢ : ٣١٢ .

ما كان لآبائهم ، ليعودوا الناس عادة يستوحشون معها السبي  
الخروج منها . . . . (١)

ولا حظ الجاحظ ان من مناقب ملوك الفرس ايضا ، فضيلة الحنين الى الاوطان ،  
مع ما تعكسه من " طيب العنصر ونفاة الجوهر " (٢) قال :

• ووجدنا من العرب من كان اشرف على نفسه وافخر في حسيه ؛ ومن  
العجم : من كان اطيب عنصرا وانفس جوهرًا - اشد حنينًا الى وطنه ،  
ونزاعًا الى تربته . . . وحكى الموبذ انه قرأ في سيرة اسفنديار بن يستاسف  
ابن لهراسف ، بالفارسية ، انه لما غزا بلاد الخزر لم يستنقذ اخته من الاسر ،  
اعتل بها ، فقبل له : ما تشتهي ؟ قال : شمة من تربة بلخ ، وشربة من ماء  
واديبها . واعتل سابور ذو الاكستاف (٣) بالروم ، وكان ماسورا ، فقالت له  
بنت ملك الروم وقد عشقته : ما تشتهي ما كان فيه فذاؤك ؟ قال : شربة  
من ماء دجلة ، وشمة من تربة اصطخر . فغبرت عنه ايامًا ثم اتته يوما بماء  
الفرات ، وقبضة من تراب شاطئه ، وقالت : هذا من ماء دجلة وهذه من  
تربة ارضك ، فشرب واشتم من تلك التربة ، فنقه من مرضه . . . ولما افتتح  
وهرزبن شيرزاد بن بهرام جور اليمين ، وقتل ملك العيشة المتغلب  
على اليمين ، اقام بها عاملا لانوشروان ، فبنى نجران اليمين - وهي مسن  
احصن مدن الثغور - فلما ادركته الوفاة اوصى ابنه شيرزاد ان يحمل الى  
اصطخر ناس ابيه ، ففعل به ذلك . فهو " الملوك الجبابرة الذين  
لم يفتقدوا في اغترابهم نعمة ، ولا ظادروا في اسفارهم شهوة ، حنوا الى  
اوطانهم ، ولم يوثروا على تربهم وساقط رؤوسهم شيئا من الاقاليم  
المستفادة بالتفازي والمدن المغتصبة من ملوك الامم " (٤)

(١) الجاحظ ، العثمانية : ١٨٦ . وقد اتى هذا الكلام في معرض كلام الجاحظ  
عن سلمان الفارسي .

(٢) الجاحظ ، " رسالة الحنين الى الاوطان " ، رسائل الجاحظ ، ج ٢ : ٤٠٧ .

(٣) وسابور ذو الاكثاف ، ملك فارس ، حمل نصارى الشرق على التمسح فامتنعوا من ذلك  
وقتل منهم نحو من مئتي الف . راجع السعودي ، التنبيه والاشراف ، ص ١٤٩ .

(٤) الجاحظ ، " رسالة الحنين الى الاوطان " ، رسائل الجاحظ ، ج ٢ : ٤٠٧ - ٤٠٩ .

ومن مناقب الفرس وبالتحديد اهل خراسان ، ساهمتهم في الدعوة العباسية وترسيخها كما يستفاد من قوله : دولة بني العباس عجمية خراسانية (١) . وما ان هناك فرقا بين المدلول الجغرافي لمصطلح اهل خراسان ، والمدلول السكاني له ، فلا بأس من استخراج اقوال الجاحظ فيمن يقصده بالفضل المذكور ، وبالتحديد في الخراسانيين الفرس والخراسانيين الابناء (٢) دون الخراسانيين الترك والخراسانيين العرب .

اما الخراسانيون الفارسيون فقد نسب الجاحظ لهم نصيبا من الفضل في ساهمتهم في نصره الدعوة العباسية ، وخاصة طبقة اشرافهم او ما يسمى بالآزاد مديسة .  
قال :

... والخراساني يقول : نحن النقباء وابناء النقباء . . . ونا الدعاة  
قبل ان تظهر نقابة . . . وقبل كشف القناع وزوال التقيّة وزوال ملك اعدائنا

(١) الجاحظ ، البيان ، ٣ : ٣٦٦ .

(٢) ان مصطلح اهل خراسان يشمل ثلاثة اجناس كما هو واضح في "رسالة مناقب الترك" للجاحظ . فالخراسانية هم سكان اقليم خراسان المحليين اي هم الايرانيين المحليون الذين دخلوا في الاسلام اثر الفتوحات الاسلامية لديارهم كسما يشملون فئة الابناء او البنويعين الذين هم خراسانيون من جهة الولادة ، راجع "رسالة مناقب الترك" ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٣١ . والخراسانية هم الاتراك الذين استقروا واستوطنوا في اقليم خراسان من بلاد فارس ، اي هم الفئة المتحضرة من الترك القادمة من بلاد ما وراء النهر وقد عرفوا بالخراسانية لوجودهم في خراسان . قال الجاحظ : "ان الاختلاف بين الخراسانيين والتركي كالاختلاف بين البدوي والحضري والسهلي والجبلي" المصدر نفسه ، ص ١٠ . والخراسانية هم ايضا القبائل العربية المستوطنة في خراسان اشر الهجرة من البصرة والكوفة والشام لغراض الفتوح العسكرية . قال الجاحظ : والخراسانية هم ابنا العرب والاعراب الذين نزلوا خراسان . المصدر نفسه ، ص ٦٣ . والخلاصة ان الجاحظ شمل في رسالته المذكورة بالفضل اهل خراسان جميعا لرغبته في جمع شمل جند الخلافة العباسية . وما دام الكلام يدور حول مناقب الفرس ، فالمقصود بالفضل هم الخراسانيون الفرس والخراسانيون الابناء .

عن مستقره، وثبات تلك اوليائنا في نصابه . . . . . وما الزغندية والآزاد مردية . . . . . ونحن اهل هذه الدولة واصحاب هذه الدعوة ومنبت هذه الشجرة . . . . . والانصار انصاران : الأوس والخزرج نصروا النبي صلى الله عليه وسلم في اول الزمان ، واهل خراسان نصروا ورثته في آخر الزمان . . . . . وليس في الارض صناعة غريبة من ادب وحكمة وحساب وهندسة وايقاع وصنعة وفقه ورواية نظرت فيها الخراسانية الا فرعت فيها الرواساء وبرزت فيها العلماء" . (١)

واما البنويع او الابناء فهم كما يقول الجاحظ خراسانيون من جهة الولادة ، ولهم فضلهم ايضا في الدعوة العباسية . قال :

" . . . . ان البنوي قال : انا اصلي خراسان ، وهي مخرج الدولة ومطلسع الدعوة ، ومنها نجم هذا القرن وصبا هذا الناب ، وتفجر هذا ينبوع . . . . . وفرعي بغداد وهي مستقر الخلافة . . . . . وفيها بقية رجال الدعوة ، وابناء الشيعة ، وهي خراسان العراق ، وببيت الخلافة . . . . . وانا اعرف في هذا الامر من ابي واكثر تردادا فيه من جدى (٢) . ولنا بعد في انفسنا

(١) الجاحظ ، " مناقب الترك " ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ١٤ ، ١٥ ، ٢٠ . ولا يستبعد الدارس فاروق عمران يكون غير العرب قد اشترك في الدعوة العباسية ، الا انه لا يمكن مقارنتهم بالعرب من حيث الدور والفعالية . وهذا القول الذي يرى ان اكثرية الدعاة كانوا عربا ، ( فاروق عمر ، طبيعة الدعوة العباسية ، بيروت : دار الارشاد ، ١٩٧٠ ص ١٣٣ - ١٣٤ و ١٥٩ - ١٦٠ و ٣٠١ ) ، يطرح استفهاما حول مقولة الخراسانيين اعلاه وخاصة الآزاد مردية التي هي طبقة اشرف الفرس اي الطبقة الارستقراطية الايرانية المتعاهدة مع ولاة بني امية على اخذ الضرائب من العرب المستوطنين ، اي انها كانت ضد الدعوة العباسية المهددة لمصالحهم وامتيازاتهم فكيف يساهم الفرس النبلاء في ثورة لا مصلحة لهم فيها ؟

(٢) في ذلك اشارة الى ما قلناه من ان اصلهم خراساني اي فارسي من جهة الولادة ، فمصطلح الابناء يعني اولئك الذين اجتذبتهم الحروب من بلاد فارس الى جزيرة العرب منذ ان استنجد سيف بن ذي يزن بكسرى ( ٥٣١ - ٥٧٩ م ) ، لينصره على الحبشة التي غزت اليمن ، بارسال قائده وهرز . وقد ملكوا اليمن وتزوجوا في العرب فقيل لا ولا هم الابناء ، لان امهاتهم من غير جنس آباؤهم . فالابناء ، اي اولاد المهاجرين الفرس ، يفخرون اعلاه انهم افضل من آباؤهم الذين نصروا العرب في الجاهلية . انظر : الجاحظ ، " رسالة في مناقب الترك " ، ج ١ : ٥٣ ومادة ابنا في :

ملا ينكر من الصبر تحت السيوف القصار والرماح الطوال . . . ونحن  
اهل الشبات عند الجولة والمعرفة عند الحيرة . . . وزينة العساكر وحلس  
الجيوش . . . ونحن اصحاب الفتك والاقدام . . . نقاتل بالليل كما  
نقاتل بالنهار . ونحن اصحاب الخط والكتابة والفقہ والرواية . ولنسا  
بفداد باسرها تسكن ما سكنا ، وتتحرك ما تحركنا والدنيا كلها معلقة  
بها وصائرة الى معناها . . . ونحن بعد تربية الخلفاء وجيران الوزراء ،  
ولدنا في افنية ملوكنا ونحن اجنحة خلفائنا . . . (١)

---

(١) الجاحظ ، "رسالة في مناقب الترك" ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٢٥ - ٢٨ .



ما اخذه الجاحظ على الفرس ، اعتناقهم لدين زرادشت (١) وقد تناول فسي ذلك الخاصة والعامه . والمقصود بالخاصة " كسرى ابرويز وآباؤه واحباؤه وقرايبه وكتابه واطباؤه وحكماؤه واسبابته " (٢) واما العامة فقد قال فيها الجاحظ وقد دعاها بالمجوس :

" . . . وكانوا يفشون الامهات ويأكلون السميتة (٣) ويتوضؤون بالابوال والماء موجود عندهم . ويعظمون النار وهم اظهروها وان شاءوا اطفؤوها . ويقولون ان الله كان وحده لا شيء معه فلما طالت وحدته استوحش فلما استوحش ففكر فلما ففكر تولد من فكرته " اهرمن " وهو ابليس . فلما مثل بين يديه اراد قتله . فلما اراد قتله امتنع فصالحه الى اجل معلوم ووادعه الى مدة مسماة . . . ثم ان اهرمن نوى الغدر ، وذلك شيمته . فانشأ يخلق اصناف الشر يستمد بها عليه ، فلما عرف ذلك منه انشأ يخلق اصناف الخير ليضع باراً كل جند جندا . . . ثم قالوا في قصة العوالسم عندهم وفي اسمائها وجواهرها وهيئاتها وفي خلق مهنة ومهينة وهما آدم وحواء . وفي سويين المنتظر عندهم ما لا يستطيع وصفه احسق منقوص ولا عالم تام ولو جهد كل جهده واستفرغ كل قوته . . . " (٤)

(١) زرادشت رجل ظهر في عهد كيشتاسب بن كيلهراسب ، من ملوك الفرس . وقد اتاه بدين المجوسيه فقبلها الملك وحمل اهل ملكته عليها وقتل عليها . وكان الفرس قبل ذلك على رأى الحنفا الصايئين . انظر : السعودى ، التنبيه والاشراف ، ص ٩٠ . وزرادشت هو صاحب اليبستاق وشرحه الزنديستا . ظهر قبل الاسكندر بنحو ثلاثمئة سنة على ما في التنبيه والاشراف ، ص ٩٨ . وقد ظهر من بعده " مزدق " فتأول اليبستا وجعل لظاهرها باطنا واستخلص من ذلك الديانة المزدقية . انظر المصدر نفسه ، ص ١٠١ . وقد دعا زرادشت دعوتة - كما يورخ السعودى - خلال الطبقة الثالثة من ملوك الفرس . اما مزدق فخلال الطبقة الخامسة من ملوك الفرس .

(٢) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٥ : ٣٢٥ - ٣٢٦ .

(٣) اشار الجاحظ الى ان الفرس انما فعلوا ذلك استجابة لزرادشت الذى دعا الى نكاح الامهات . انظر : كتاب الحيوان ، ٥ : ٣٢٤ . و اشار ايضا الى اكلهم المتردية والمنخنة . المصدر نفسه ، ٤ : ٩٥ .

(٤) الجاحظ ، " كتاب الاخبار " ص ١٠٠ - ١٠١ .

وقد تناول الجاحظ في كتاباته المظاهر المختلفة لدين زرادشت بالنقد والسخرية ، كقوله في تعظيم زرادشت لشأن النار وعلّة تخويفه اصحابه بالبرد والثلج دونها :

" وزرادشت هو الذي عظم النار وامر باحيائها ، ونهى عن اطفالها ، ونهى الحيض عن مسها والدنوسها . وزعم ان العقاب في الآخرة انما هو بالبرد والزمهرير والدمق . وزعم اصحاب الكلام ان زرادشت - وهو صاحب المجوس - جاء من بلخ وادعى ان الوحي نزل عليه على جبال سيلان . وانه حين دعا سكان تلك الناحية الباردة ، الذين لا يعرفون الا الاذى بالبرد ، ولا يضرهون المثل الا به . . . فلما رأى موقع البرد منهم هذا الموقع ، جعل الوعيد بتضاعفه ، وظن ان ذلك اذجر لهم عما يكره . وزرادشت في توعده تلك الامة بالثلج دون النار ، مقربانه لم يبعث الا الى اهل تلك الجبال . وكأنه اذا قيل له : انت رسول الى من ؟ قال لا هل البلاد الباردة ، الذين لا يد لهم من وعيد ، ولا وعيد لهم الا بالثلج . وهذا جهل منه ، ومن استجاب له اجهل منه . . . فلو كان المبالغة في التنفير والزجر اراد ، واليه قصد ، لذكر ما هو في الحقيقة عند الامم اشد . والوعيد بما هو اشد ، وبما يحتم الخوف سكان البلاد الباردة والحارة اشبه ، اذا كان المبالغة يريد . " (١)

اما مقولة اتباعه من المجوس في بدء الخلق فقال فيها الجاحظ :

" . . . وزعم المجوس ان الناس من ولد مهنة ومهينة . وانهما تولّدا فيما بين ارحام الارضين ، ونطفتين ابتدرتا من عيني ابن هرمز حين قتله هرمز . وحماقات اصحاب الاثنيين كثيرة في هذا الباب . . . " (٢)

وقد فصل الجاحظ مقولة المجوس ان الفأرة من خلق الله وان السنور من خلق الشيطان ، كما في النص الذي ورد آنفا ، وتناولها بالنقد والتعجب ، قال :

(١) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٥ : ٦٦ - ٦٨ .

(٢) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ١٥ : ١٩٠ .

\* ويزعم زرادشت وهو مذهب المجوس ان الفأرة من خلق الله وان السنور من خلق الشيطان ، وهو اهرمن . وهو اهرمن : كيف تقول ذلك والفأرة مفسدة وتجذب فتيل الصباح فتحرق بذلك البيت والقبائل الكثيرة ، والمدن العظام والارياض الواسعة ، بما فيها من الناس والحيوان والاموال ، وتقرض دفاتر العلم ، وكتب الله ، ودقائق الحساب ، والصكوك . . . والناس ربما اجتلبوا السنانير ليدفعوا بها بوائق الفأرة (١) فكيف صار خلق الضار المفسد من الله ، وخلق النافع من الضر من خلق الشيطان ؟ . . . وقال : لان السنور لوبال فسي البحر لقتل عشرة آلاف سمكة . فهل سمعت بحجة قط ، او بحيلة ، او باضحوكة او بكلام ظهر على تليقح هرة ، يبلغون هذا الاعتلال ؟ فالحمد لله الذي كان هذا مقدار عقولهم واختيارهم . . . . (٢)

كما ان الجاحظ لم يملك الا تنفيذ مقولة ثانية للمجوس الذين رأوا ان العظايا فاتها نصيبها من السموم التي كان يوزعها " اهرمن " على عالم الحيوان ، فقال :

\* . . . وزعم زرادشت ان العظايا ليست من ذوات السموم . . . وان اهرمن لما تعدل يقسم السموم ، كان الحظ الا وفر لكل شيء سبق الى طلبه ، كالا فاهي والشعابين والجرارات . . . فاما العظاية ، فانها احتبست عن الطلب حتى نفذ السم . . . فلما جاءت العظاية وقد فني السم ، دخلها من الحسرة وما علاها من الكرب ، حتى جعلت وجهها الى الخرابات والمزابل . فاذا رايت العظاية تشي شيئا سريعا ثم تقف ، فان تلك الوقفة انما هي لما يعرض لها من التذكر والحسرة على ما فاتها من نصيبها من السم . . . ولا اعلم العظاية في هذا القياس الا اكثر شرورا من الوزغ ، لانها لولا افراط طباعها في الشرارة ، لم يدخلها من قوة الهيم مثل السمكذي دخلها . . . . (٣)

(١) ذكر الجاحظ هذه القصة ايضا في كتاب الحيوان ٥٥ : ٣١٩ وقال : " فالاسم

كلها على التفادي من الفأرة واتخاذ السنانير لها . "

(٢) الجاحظ ، الحيوان ٤٥ : ٢٩٨ - ٣٠٠ .

(٣) العظاية هي دويبة ، انظر المصدر نفسه ، ٤ : ٢٩٦ - ٢٩٧ .

ورس الجاحظ الفرس بالتناقض والحماقة لجهلهم ان العظامة اكثر شـمرا  
من الافعى . قال :

" . . . ولم ار قولا اشد تناقضا ولا اموق من قولهم هذا لان العظامة  
لم يكن ليعتربها من الاسف على فوت السم ، على ما ذكروا اولا ، الا وفي  
طبعها من الشرارة الغريزية اكثر مما في طبع الافعى . " (١)

وقد سلك الجاحظ مسلكا تعليليا في عرض ماآخذه على الفرس حين استنتج بأن  
عقيدتهم لا تتبع احكام العقل ، وانما تتبع المنشأ والتقليد . قال :

" . . . فان تعجبت من استسقاطي لعقل كسرى ابرويز وآباه ، واحبائه  
وقرايينه ، وكتابه واطبائه ، وحكمائه واساورته - فاني اقول في ذلك قولا  
تعرف به اني ليس الى العصبية ذهبت . . . فداة المنشأ والتقليد  
داة لا يحسن علاجه حالينوس ولا غيره من الاطباء . وتعظيم الكبرياء ،  
وتقليد الاسلاف ، والف دين الآباء ، والانس بما لا يعرفون غيرهم ،  
يحتاج الى علاج شديد ، والكلام في هذا يطول . فان آثرت ان تتعجب ،  
حتى دعاك التعجب الى ذكر ابرويز ، فاذا ذكر سادات قريش فانهم  
فوق كسرى وآل كسرى . " (٢)

واذا كان داة التقليد والمنشأ سببا في اعتناق كسرى وخاصته ، للزراذشتية ، فان  
سبيل زرادشت نفسه مع قومه كان يعتمد في مفهوم الجاحظ ، على عوامل اخرى كشيوع  
الفساد وانعدام الحرية فيما بين عامتهم وخاصتهم . قال الجاحظ :

" . . . وزرادشت بهذا العقل دعا الناس الى نكاح الامهات ، والسبي  
التوضوء بالبول . . . ولولا انه صادف دهرنا في غاية الفساد وامة فسي  
غاية البعد من الحرية . . . لما تم له هذا الامر . وقد زعم ناس ان ذلك  
انما كان وانما تم لانه بدأ بالملك ، فدعاه على قدر ما عرف من طباعه  
وشهوت وخلق . فكان الملك هو الذي حمل على ذلك رعيتة (٣) . . . ولا يجوز  
ان يكون الملك حمل العامة على ذلك الا بعد ان يكون زرادشت الفى على ذلك  
الفساد اجناد الملك . ولم يكن الملك ليقوى على العامة باجناده ، وبعشرة

(١) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٦٤ : ٤٦٠ .

(٢) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٥ : ٣٢٦ - ٣٢٧ .

(٣) راجع السعدوى ، التنبيه والاشراف ، ص ٩٠ .

اضعاف اجناده ، الا ان يكون في العامة عالم من الناس ، يكونون  
اعوانا للاجناد على سائر الرعية . . . وقد ينبغي ان يكون ذلك  
الزمان كان افسد زمان ، واولئك الاهل كانوا شر اهل . ولذلك لسم  
ترقط زانين تحول الى المجوسية عن دينه . ولم يكن ذلك المذهب  
الا في شقهم وصقهم من فارس والجبال وخراسان ، وهذه كلها  
فارسية (١) .

ولم يكف الجاحظ بسرد المآخذ الدينية على الفرس وانما خصهم ايضا بنقد  
سلوكهم الاجتماعي وبالتحديد ما شاع في اقليم خراسان واقليم الاهواز من بلاد فارس .  
اما خراسان ، فقد لاحظ الجاحظ شيوع البخل في انسابها وحيوانها ، قال :

" . . . نبدأ باهل خراسان لاكثر الناس في اهل خراسان . ونخص بذلك  
اهل مرو ، بقدر ما خصوا به من بخل . قال ثامة بن الاشرس (٣) : لم  
ار الديك في بلدة قط الا وهو لافظ يأخذ الحبة بمنقاره ثم يلفظها  
قدام الدجاجة ، الا ديك مرو ، فاني رأيت ديكه مرو تسلب الدجاج ما في  
ساقيرها من الحب . فعلمت ان بخلهم شي في طباع البلاد ، وفي  
جواهر الماء ، فمن ثم عم جميع حيوانهم . فحدثت بهذا الحديث  
احمد بن رشيد ، فقال : كنت عند شيخ من اهل مرو . وصبي له صغير يلعب  
بين يديه . فقلت له : اما عابثا واما متحنا . اطعمني من خبزكم ، قال :  
لا تريد ، هو مر . فقلت : فاسقني من ماثمكم . قال : لا تريد ، هو مالح .  
قلت : هات لي من كذا وكذا . قال : لا تريد ، هو كذا وكذا . الى ان  
عددت اصنافا كثيرة . كل ذلك يمنعني ويغضه التي . فضحك ابوه وقال :  
ما ذنبنا ؟ هذا من علمه ما تسمع ؟ يعني ان البخل طبع فيهم وفي  
اهراقهم وطينتهم . . . . (٤)

(١) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٥ : ٣٢٤-٣٢٦ .

(٢) ثامة بن الاشرس من أئمة المعتزلة في عهد المأمون . اسمه ابو بشر ثامة بن  
الاشرس النميري . كان خصيما بالمأمون . انظر ابن خلكان ، وفيات الاعيان ،  
تحقيق احسان عباس ، ( بيروت : دار الثقافة ، ١٩٧٢ ) ج ٦ : ١٧٧ .

(٣) الجاحظ ، البخلاء ، ص ١٣ .

واما الاهواز فقد قال الجاحظ انها لم تعرف بأثرة حميدة لكونها مجمع الشرور والاهثة ولان فسادها لم ينج منه من سكنها من بني هاشم ايضا ، وذلك لفساد عقول الاهواز ولو لم طبع بلادهم . قال :

• واما قصة الاهواز ، فانها قلبت كل من نزلها من بني هاشم السي كثير من طبائعهم وشمالتهم . ولا بد للهاشمي ، قبح الوجه كسان او حسنا ، او دميما كان او بارعا رائعا ، من ان يكون لوجهه وشمالته طبائع يبين بها من جميع قريش وجميع العرب . فلقد كادت البلدة ان تنقل ذلك فتبدله ، ولقد تخيفته وادخلت الضيم عليه وبيئت اثرها فيه ، فما ظنك بصنيعها في سائر الاجناس ؟ ولفساد عقولهم ولو لم طبع بلادهم ، لا تراهم مع تلك الاموال الكثيرة ، والضياح الفاشية ، يحبسون من البنين والبنات ما يحبه اوساط اهل الامصار على الثروة واليسار ، وان طال ذلك . . . وليس في الارض صناعة مذكورة ، ولا ادب شريف ، ولا مذهب محمود ، لهم في شي\* منه نصيب وان خص . ولم اربها وجنة حمرا\* لصبي ولا صببة . . . وهي قتالة للغربا\* . وعلى ان حياها خاصة ليست للغريب ياسر منها الى القريب . وهاؤها وحاها ، وفي وقت انكشاف الوباء\* ونزوح الحمى عن جميع البلدان . . . وكذلك جمعت سوق الاهواز (1) الافاعي . . . ولو كان في العالم شي\* هو شر من الافعى والجرارة ، لما

(1) سوق الاهواز احد الاماكن الويثية التي كان يضرب بها المثل في فساد الهوا\* واعتلال الصحة . وهو قصة بلاد الاهواز او خوزستان ، وما يسمى الان عرستان . انظر :

*Le Strange, Lands of the Eastern Caliphate. (Cambridge, 1905), p.232.*

والاهواز جمع هوزاو خوزي ، نسبة لقبيلة محاربة ، نمت تحت الحكم الاموي والعباسي ، وقد حصلت ثورة الزنج فيها خلال القرن الثالث الهجري ، التاسع م . انظر :

*Encyclopaedia of Islam, new ed., s.v. "Al-Ahwāz," by L. Lockhart.*

وقد ذكر ياقوت الرومي الحموي في معجم البلدان ، ما يدل على انه كان ينقل من الجاحظ . قال : " واهل الاهواز معروفون بالبخل والحمق وسقوط النفس . ومن اقام بها سنة نقص عقله . وقد سكنها من الاشراف فانقلبوا الى طباع اهلها وهي كثيرة الحمى ووجوه اهلها مصفرة مغيرة . وقال مستشهدا باحمد بن محمد الهمداني : اهل الاهواز الأم الناس وابخلهم . . . وليس في الارض صناعة مذكورة ولا ادب شريف ولا مذهب محمود لهم في شي\* منه نصيب . . . وهي قتالة للغربا\* . كسرت (= )

قصرت قصة الاهواز عن توليده وتلقيحه ! ومن اقام بالا هواز حولا فتفقد عقله ذو فراسة ، وجد النقصان فيه بيّنا .<sup>(١)</sup>

وما انتقده الجاحظ ايضا في اهل الاهواز صعوبة لغتهم لكثرة مخارج حروفهم :

واللغات انما تشتد وتعسر على المتكلم بها ، على قدر جهلها  
بما كنها التي وضعت فيها . . . وعلى قدر مخارجها وخفتها وسلسها  
وثقلها وتعقدها في انفسها ، كقرق ما بين الزنجي والخوزي . فان  
الرجل ينتخس في بيع الزنج وابتاعهم شهرا واحدا فيتكلم بعامة  
كلامهم ، ويباع الخوز ، ويجاورهم زمانا فلا يتعلق منهم بطائل . . . والمخارج  
لا تحصى ولا يوقف عليها . وكذلك القول في حروف كثيرة من حروف لغات  
العجم ، وليس ذلك في شي ، اكثر منه في لغة الخوز . وفي سواحل البحر  
من اسيا فارس ناس كثير كلامهم يشبه الصغير . . .<sup>(٢)</sup>

بذلك نكون عرضنا آراء الجاحظ في مناقب الفرس ومثالبها .

---

(٣) بسوقها الافاعي ، وفي جبلها الطاعن في منازلها ، المظل عليها ، والجرارات فسي بيوتها ومنازلها ومقابرها . ومن بليتها ان من ورائها سباخا ومناقع مياه غليظة . فاذا التقى عليهم ما انجر من تلك السباخ وما قذفه ذلك الجبل فسد الهواء ، وفسد بفساده كل شي ، يشتمل عليه ذلك الهواء . وسكرها جيد وشرها كثير لا بأس به ، وكل طيب يحمل الى الاهواز فانه يستحيل وتذهب رائحته ويبطل حتى لا ينتفع به . انظر : ياقوت الرومي الحموي ، معجم البلدان ، ( بيروت : دار صادر ودار بيروت ، ١٩٥٥ ) ، ج ١ : ٢٨٥-٢٨٦ .

(١) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ج ١ : ١٤١-١٤٢ ، ص ١٣٥ .

(٢) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٢٨٩:٥ و البيان والتبيين ، ١٤ : ٣٤ . وينافي هذا القول ، ما نسبته الجاحظ الى الشعبية في سهولة لغة اهل فارس واهل مرو واهل قصة الاهواز . انظر : البيان والتبيين ، ٣ : ١٣ .

## الفصل الرابع

=====

### الروم

=====

#### مناقبة الروم :

عدّ الجاحظ الروم من الامم المعتمدة\* التي فيها الاخلاق والآداب والحكم والعلم<sup>(١)</sup> وقد لخص مناقبها بقوله :

" . . . ثم ملنا الى الروم فوجدناهم اطباء وحكما ومنجّمين ولهم اصول الليون وصنعة القرسطن وكيان الكتب ، وهم الغايات في التصوير ، يصور مصوره الانسان حتى لا يفادر شيئا ، ثم لا يرضى بذلك حتى يصوره شابا وان شاء كهلا وان شاء شيخا ، ثم لا يرضى بذلك حتى يصوره باكيا او ضاحكا ، ثم لا يرضى بذلك حتى يجعله جميلا ناعما عتيقا ، ثم لا يرضى بذلك حتى يفصل بين ضحك الشامت وضحك الخجل وبين المبتسم والمستعبر وبين ضحك المسرور وضحك الهازي ، وضحك المتهدد ، فيركب صورة في صورة وصورة في صورة وصورة في صورة . ثم لهم في البناء ما ليس لغيرهم ومن الخرط والنجر والصناعة ما ليس لسواهم . ثم هم مع ذلك اصحاب كتاب وملة . ولهم بعد في الجمال والحساب والقضا في النجوم والخط والنجدة والرأى وانواع السكيدة ما لا ينكر ولا يجحد ."<sup>(٢)</sup>

ومن مناقب الروم ايضا فضيلة الحنين الى الاوطان . وقد دلّ الجاحظ على ذلك بقوله في ملك الروم ، الاسكندر :

" وكان الاسكندر الرومي جال في البلدان واخرب اقليم بابل وكغز الكوز . . . فمرض بحضرة بابل ، فلما اشفى اوصى الى حكماة ووزرائه ان تحمل رمتة في تابوت من ذهب ، الى بلده ، حبا للوطن . . . فهو لا الطوك الجبابرة الذين لم يفتقدوا في اغترابهم نعمة ، حنوا الى اوطانهم

---

(١) الجاحظ ، البيان ، ١ : ١٣٧ و ٣٨٤ .

(٢) الجاحظ ، كتاب الاخبار وكيف تصح ، ص ٩٨ - ٩٩ .



ولم يؤثروا على تربيتهم وساقط رؤوسهم شيئا من الاقاليم المستفادة  
بالتغازي والمدن المغتصبة من ملوك الامم .<sup>(١)</sup>

ويبدو للدارس ندرة في ذكر اسما ملوك الروم ، الذين يتمتعون بالمناقسب  
والحاسن ، كما فعل الجاحظ في كلامه في ملوك الفرس ، ولعل ذلك مرده الى عدم  
الملم الجاحظ باللغة الرومية وبتاريخ الروم فضلا عن حالة الحرب بين العرب والسرور .  
وباستثناء ملاحظة الجاحظ السابقة في الاسكندر لانعثر سوى على النص التالي الذي  
يعكس اعجاب الجاحظ بما لدى " ملك الروم " من دراية في الحرب . قال :

\* قال ابو الحسن عن سلمة بن خطاب الازدي : قال : لما تشاغل  
عبد الملك بن مروان بمحاربة مصعب بن الزهير ، اجتمع وجوه الروم الي  
ملكهم فقالوا له : قد امكنتك الفرصة من العرب ، بتشاغل بعضهم مع بعض ،  
لوقوع بأسهم بينهم . فالرأى لك ان تغزوهم الى بلادهم فانك ان فعلت  
ذلك بهم نلت حاجتك ، فلا تدعهم حتى تنقضي الحرب التي بينهم  
فيجتمعوا عليك . فنهاهم عن ذلك وخطأ رأيهم ، فأبوا عليه الا ان يغزوا  
العرب في بلادهم . فلما رأى ذلك منهم امر بكلبين فحرش بينهم  
فاقتلا قتالا شديدا ، ثم دعا بشعلب فخلأه ، فلما رأى الكلبان الشعلب ،  
تركا ما كانا فيه ، واقبلا عليه حتى قتلاه ، فقال ملك الروم : كيف تسرون ؟  
هكذا العرب ، تقتتل بينها ، فاذا رأونا تركوا ذلك واجتمعوا علينا ،  
فعرفوا صدقه ، ورجعوا عن رأيهم .<sup>(٢)</sup>

كما اشار الجاحظ بالزبأ الرومية<sup>(٣)</sup> التي استوحيت فكرة الانفاق من تدهيـر  
اليرابيع . وكذلك كان شأن قومها ، يحاكون اليرابيع بغرض الاحتيال في حروبهم

- 
- (١) الملاحظ ان الروم في ادب الجاحظ هم غير اليونان ، راجع البيمان ١٤ : ٨٨  
ورسالة " الرد على النصاري " ، رسائل الجاحظ ، ٣ : ٣١٤ - ٣١٥ ، والنص  
المذكور عن الاسكندر من " رسالة في الحنين الى الاوطان " ، المصدر نفسه ، ٢ : ٤٠٩ .
- (٢) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٢ : ١٧٢ - ١٧٣ .
- (٣) ويرى المحقق عبدالسلام هارون ان اغلب القول انها عربية . انظر كتاب الحيوان  
٥ : ٢٧٨ ، وكذلك المستشرق شارل بلا ، الذي رأى انها زنبويا التي ملكست  
تدمر ، بين ٢٦٧ و ٢٧٢ للميلاد . راجع كتاب التربيـع والتدوير ، تحقيق بلا ،  
الفقرة ٦٣ ص ٣٧ .

على اعدائهم ، " بالانفاق والمطامير والمخارق" (١) . ومن جهة ثانية ، صور الجاحظ  
اعتماد الروم على الخنازير للاستدلال على الوقت . قال :

" . . . ورأينا الروم ونصارى القرى يعرفون ذلك بحركات الخنازير  
وبيكورها وفدوها واصواتها ، ولذلك قالوا في وصف الرجل : له وثبة  
الاسد ، وروغان الثعلب ، وانسلاّب الذئب ، وجمع الذرة ، ويكسور  
الخنزير . . . . ." (٢)

كما لاحظ الجاحظ ان سبي رجال الروم يصلحون لتربية الابل مع العلم ان في  
دخول الابل بلاد الروم ، هلاكها . قال :

" واصحاب الابل يرغبون في اتخاذه النوبة والبربر والروم للابل ، يرون  
انهم يصلحون على معاشها ، وتصلح على قيامهم عليها . ومن العجيب  
ان رجال الروم تصلح في البدو مع الابل ، ودخول الابل بلاد الروم هو  
هلاكها . ." (٣)

وقد اعجب الجاحظ بالاعتناء بالزى عند ملوك العجم - الذين يشملون الروم -  
لما في الاعتناء من تقوية لمعنى السلطان ، في نفوس العامة الذي لولاه " لاكل الناس  
بعضهم بعضا ، كما انه لولا السيم لوثب السماع على " السوام" (٤) . قال :

" . . . ولذلك وضعت ملوك العجم على رؤوسها التيجان وجلست على  
الاسرة ، وظهرت بين الفرش . وهل يملأ عيون الاعداء ويرعب قلوب  
المخالفين ويحشو صدور العوام الا تعظيم شأن السلطان والزيادة في  
الاقدار ، والا الآلات . وهل دواؤهم الا في التهويل عليهم ؟ وهسل  
تصلحهم الا اخافتك اياهم ؟ . . . . ." (٥)

- 
- (١) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٥ : ٢٧٩ .  
(٢) المصدر نفسه ، ٢ : ٢٩٤ . وقارن ايضا بالمصدر نفسه ، ٢ : ٣٥٣-٣٥٤ و٣٦٧ من الرسالة .  
(٣) المصدر نفسه ، ٣ : ٤٣٤ .  
(٤) الجاحظ ، " رسالة في المعلمين " ، رسائل الجاحظ ، ج ٣ : ٤٥ .  
(٥) الجاحظ ، البيان ، ٣ : ١١٥ .

تدرج مثالب الروم الدينية في مفهوم الجاحظ نموذجاً تطبيقياً آخر، لمفهومه في تفاوت حال الامم المعتمدة في الدنيا وحالها في الدين . قال :

" ان الناس يخصّون الدين من فاحش الخطأ وقبيح العقاب بمسا لا يخصّون به سواه من جميع العلوم والآراء والآداب والصناعات . ان الفلاح والصانع والنجار والسهندس والمصور والكاتب والحاسب من كل امة وطء ، لا تجد بينهم من التفاوت في الفهم والعقل والصناعة ولا من فاحش الخطأ وافراط النقص كالذى تجده في اديانهم وفي عقولهم عند اختيار الايمان ؛ والدليل على ما وصفت لك ان الامم التي عليها المعتمد في العقل والبيان والرأى والادب والاختلاف في الصناعات اربع : العرب والهند والروم والفرس ؛ ومتى نقلتهم من الدنيا الى علم الدين ، حسبت عقولهم مختلة وفطرهم مسترقة . . . . ." (١)

اما ما وجده الجاحظ في الروم فقد افرد له رسالة خاصة (٢) لخصها بعرض مفهومهم لعيسى عليه السلام الذي يصاد مفهوم الاسلام له . قال :

" ثم هم مع ذلك اجمع ، يرون ان الآلهة ثلاثة : بطن اثنان ، وظاهر واحد ، كما لا بد للمصباح من الدهن والفتيلة والوعاء ، فكذلك جوهر الآلهة . فزعموا ان مخلوقاً استحال خالفاً ، وان عبداً تحوّل رباً وان حديثاً انقلب قديماً ، الا انه قتل وصلب بعد هذا وفقد وجعل على راسه اكليل الشوك ثم احيا نفسه بعد موت وانما امكن عبيده من اخذه واسره وسلطهم على قتله وصلبه ليؤاسي ابناؤه بنفسه وليحيب اليهم التشبه به ، ولمستصغروا جميع ما صنع بهم ولثلا يعجبوا باعمالهم فيستكثروها لربهم . فكان عذرهم اعظم من جرمهم ؛ فلولا انا رأينا باعيننا وسمعنا بأذاننا لما صدقنا ولا قبلنا ان قوما متكلمين واطباءً ومنجمين ودهاة وحسابا وكتبة وحذاق كل صنعة يقولون في انسان رأوه يأكل ويشرب ويبول وينجو ويجوع ويعطش ويكتسي ويعمرى ويزيد وينقص ، ثم يقتل بزعمهم ويصلب ، انه رب خالق واله رازق ، وانه قديم غير محدث يبيت الاعمياء ويحيى الموتى . . . ." (٣)

(١) الجاحظ ، " كتاب الاخبار وكيف تصح " ، ص ٩١ .

(٢) هي " رسالة الرد على النصارى " ، رسائل الجاحظ ، ج ٣ .

(٣) الجاحظ ، " كتاب الاخبار وكيف تصح " ، ص ٩٩ - ١٠٠ .

ومما اخذه الجاحظ في الروم ان شأنها في القتال اثر التدين لم يعد كما كان

قبله .

" . . . . . أنا قد علمنا ان الروم قبل التدين بالنصرانية ، كانت تنتصف من ملوك فارس ، وكانت الحروب بينهم سجالا (١) فلما صارت لاتدين بالقتل والقتال ، والقود والقصاص ، اعتراهم مثل ما يعترى الجبنا حتى صاروا يتكفون القتال تكلفا . ولما خامرت طبائعهم تلك الديانة ، وسرت فيهم لحواسهم ودمائهم فصارت تلك الديانة تعترض عليهم ، وخرجوا من حدود الغالبية الى ان صاروا مغلوبين . " (٢)

كما اخذ الجاحظ على الروم انها اول من ابتدع الخصاص مع ما في الخصي

من اخلاق مذمومة :

" وما يدل على قلة رحمتهم وفساد قلوبهم انهم اصحاب الخصاص من بين جميع الامم ، والخصاص اشد المثلة ، واعظم ما ركب به انسان . ثم يفعلون ذلك باطفال لان ذنب لهم ، ولا دفع عندهم . ولا نعرف قوما يعرفون بخصاص الناس حيث ما كانوا ، الا ببلاد الروم والحبيشة ، وهم في غيرها قليل ، واقل قليل (٣) . . . . . ومن اهل الملل من يخصي ابنه ويقفه على بيت العباد ، ويجعله سادنا ، كصنيع الروم . . . . . وكل خصاصا في الدنيا فانما اصله من قبل الروم . . . . . ويعرض للخصي الشره عند الطعام والبخل عليه والشح العام في كل شي ، وذلك من اخلاق الصبيان ثم النساء . . . . . ويعرض للخصي سرعة الغضب والرضى . . . . . وحب النيمة وضيق الصدر بما اودع من السر وذلك من اخلاق الصبيان والنساء . . . . . (٤)

- (١) انظر: اشارة ثانية لهذا المعنى في "رسالة في حجب النبوه" ، رسائل الجاحظ ، ٣ : ٢٦٨
- (٢) الجاحظ ، " كتاب الاوطان والبلدان " ، رسائل الجاحظ ، ٤ : ١٢٦ . وقد تراجع الجاحظ عن هذا الرأي في امة الروم حين قارنها بقبيلة التفرغز التركية . انظر: كتاب التربيح والتدوير ، تحقيق شارل بلا ، ص ٧٧ حيث يقول " صحيح ان ليس في دين الروم القتال ، ولكنها لا تسترق ولا تسلب . "
- (٣) اى لدى الصقالبة والسودان ( الحبشان والنوبة والسند ) . راجع الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ١ : ١١٦-١١٩ .
- (٤) الجاحظ ، " كتاب الرد على النصارى " ، رسائل الجاحظ ، ٣ : ٣٢٢-٣٢٣ ، وكتاب الحيوان ، ١ : ١٢٤ و١٣٥ .

وقد رأى الجاحظ ان عادات الروم في زخرفة بيوت العبادة والانفاق عليها  
" مذهلة للقلوب ومشغلة دون الخشوع" (١) . وقد اخذ الجاحظ عليهم ايضا نشاطهم  
في نشر الزندقة ودم العرب (٢) في المجتمع العباسي ، وانهم كانوا السبب في افساد  
الفكر اليوناني . (٣)

- 
- (١) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ١ : ٥٦  
(٢) انظر المصدر نفسه ، ٤ : ٤٤٧ - ٤٤٨ و" كتاب في الرد على النصاري" ،  
رسائل الجاحظ ، ٣ : ٣٢٠ - ٣٢١ .  
(٣) انظر " كتاب في الرد على النصاري " ، رسائل الجاحظ ، ٣ : ٣١٥ ومقالة طريف  
خالدي في :

Tarīf Khālidī, "A Mosquito's wing: Al-Jāhiz on the Progress of Knowledge," in Arabic and Islamic Garland. (London: Islamic Cultural Center, 1977) p. 142.

## الفصل الخامس

=====

### الترك

=====

#### مناقبة الترك

اشرنا في هذه الرسالة خلال دراسة رأى الجاحظ في الفرس الى ان لفظ الخراسانية يدل على الترك والعرب والفرس ، الموجودين في ذلك الاقليم . وان فسي قول الجاحظ المذكور " دولة بني العباس عجمية خراسانية" (١) اعترافا بفضل هذه الفئات الثلاث في قيام الدولة العباسية . واما فضل الترك في هذا الشأن فقد دفع الجاحظ الى خط رسالة كاملة سماها " رسالة في مناقبة الترك" اكد فيها على ان الترك اصدقا العرب ومواليهم السخرون لنصرة الخلافة ، في محاولة منه لتجاوز واقع التنافر الذي دب بين جند الخلافة حول فضلهم في قيامها . في سبيل ذلك ، استعمل الجاحظ معلوماته الدينية لترسيخ ولاء الترك للعرب الذين جمعوا بين النسب المعنوي السنوح لهم بالولا ، تحقيقا لقول الرسول "الولا لحمة كلحمة النسب" (٢) وبين النسب الفعلي الواقع بالمصاهرة :

" . . . والسنة قد نقلت الموالي الى العرب في كثير من المعاني ، لانهم عرب في المدعى ، والعاقلة ، وفي الوراثة . وهذا تأويل قوله : مولى القوم منهم . . . فقد شاركوا العرب في انسابهم والموالي في اسبابهم ، وفضلوهم بهذا الفضل الخاص الذي لا يبلفه فضل . . . " (٣)

- 
- (١) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ٣ : ٣٦٦ .  
(٢) اخرج الحديث الحاكم والبيهقي عن ابن عمر وتتمته " لا يباع ولا يوهب" انظر : السيوطي ، صحيح الجامع الصغير وزيادته ، تحقيق محمد ناصر الدين الالباني ، ( بيروت : المكتبة الاسلامي ، ١٩٧٩ ) المجلد ٦ ص ١١٧ .  
(٣) ويروى من انفسهم : اخرجه البخاري عن انس . المصدر السابق ، ص ٣٧٦ . انظر : الجاحظ ، رسالة في مناقبة الترك ، رسائل الجاحظ ، ج ٣ : ١٧١-١٧٢ .  
والذين شاركوا العرب وفضلوهم هم الترك .

ويؤيد ذلك ان كثيرا من اسماة الخلفاء العباسيين هن من الجوارى الاتراك (١) ،  
اي ان ولاء الترك لم يكن ولاء هاشميا لقبيلة مغمورة من قبائل العرب وانما كان ولاء  
”للباب قریش ولسا ص عبد مناف ، وهم في سربني هاشم ، وهاشم موضع العذار من  
خذ الفرس والعقد من لبة الكاعب“ (٢) . ويستطيع الدارس لآراء الجاحظ في الترك  
فهم جميع اقواله فيهم في ضوء هذا الفضل السياسي المذكور ، وهو فضل يعكس توجه  
الدولة العباسية المتفتح نحو الامم الذي يتجاوز دائرة الولاة الجنسي العربي السى  
دائرة الولاة الديني والعسكري (٣) . ولذلك نجد ان الجاحظ بعدما فرغ من تأكيد  
الولاة الديني للترك ، بذل جهده في تقصي مناقب الحربية التي تحلق بها  
الترك ، واظهارها للوصول الى انهم ليسوا اقل شأنًا من بقية المقاتلة .  
رأى الجاحظ ان الترك قوم انتظموا جميع معاني الفروسية والحرب وانهم  
استأثروا بجماع خصال التفوق العسكري (٤) بفضل تمتعهم بقوة الابدان وقوة الانفس .  
قال الجاحظ في ذلك :

” . . . والترك قوم يشدد عليهم الحصر والجثوم ، وطول اللبث والمكث ،  
وقلة التصرف والتحرك ، واصل بنيتهم انما وضع على الحركة ، وليس للسكون

- 
- (١) انظر : زكريا كتابي ، الترك في مؤلفات الجاحظ ، ( بيروت : دار الثقافة ،  
١٩٧٢ ) ص ١٧١ - ١٨٤ وانظر ايضا : مليحة رحمة الله ، الحالة الاجتماعية  
في العراق في القرنين الثالث والرابع بعد الهجرة ( بغداد : مطبعة الزهراء ،  
١٩٧٠ ) ص ١٤ .
- (٢) الجاحظ ، ”رسالة في مناقب الترك“ ، رسائل الجاحظ ، ٣ : ١٧١ .
- (٣) حول مفهوم الجاحظ لسياسة العباسيين الاممية الشاملة ، راجع : فاروق عمر ،  
طبيعته الدعوة العباسية ، ( بيروت : دار الارشاد للطباعة ، ) ص ٢٧٩ .
- (٤) ويرى المستشرق فرانز روزنتال ان الترك في نظر الجاحظ يشبهون العرب فسي  
القوة الحربية والقيافة . راجع :

Franz Rosenthal, The Technique and Approach of Muslim  
Scholarship, (Rome: Pontificium Institutum Biblicum, 1947), p.72.

فيها نصيب ، وفي قوى انفسهم فضل على قوى ابدانهم ، وهم اصحاب  
توقد وحرارة ، واشتغال وفطنة ، كثيرة خواطرهم ، سريع لعظهم ، وكانوا  
يرون الكفاية معجزة وطول السقام بلادة ، والراحة عقلية ، والقناعة من قصر  
الهمة ، وان ترك الغزو يورث الذلة .<sup>(١)</sup>

ويذكر الجاحظ تفاصيل اخرى عن الشخصية التركية المحاربة تؤكد ما اشرنا اليه من  
انتظامها جميع معاني الفروسية ، كصدق الشدة والانطلاقة السندفة والصبر على  
العدو السريع ومواصلة السفر والرمية على ظهور الخيل في الحرب والحداقة في  
معالجة الفرس<sup>(٢)</sup> الى حد انه لو حصلت عمر التركي وحسبت ايامه لوجدت جلوسه على  
ظهر خيله اكثر من جلوسه على ظهر الارض .<sup>(٣)</sup> فاستحق التركي في رأى الجاحظ  
ان يكون " امة على حدة " ،<sup>(٤)</sup> فيه جماع خصال التفوق العسكري ، لانه اشد ما يحب الحركة  
والانطلاق ، مع قوة في التحمل ، وقدرة ذاتية على تجديد النشاط ، اثر ما يتوقع ان يوهنه  
لدى سائر المقاتلة . وقد عبر الجاحظ عن هذه الخاصة في الترك ، بقوله الذي يعكس انه  
عابنها بنفسه :

" . . . الذى يوجد عند الاتراك عند بلوغ المنزل بعد مسير الليل كله  
وبعض النهار ، فان الناس في ذلك الوقت ليس لهم الا ان يتمدوا ويقيدوا  
دوابهم . والتركي في ذلك الوقت اذا عابن طبيا او بعض الصيد ابتداء  
بالركض يمثل نشاطه قبل ان يسير ذلك السير . . . وترى التركي في تلك  
الحال ، وقد سار ضعف ما ساروا : يرى بقرب المنزل عميرا او طبيا ، او عرض  
له شعلب او ارنب ، كيف يركض ركض مبتدى مستأنف حتى كان الذى سار  
ذلك السير ، وتعب ذلك التعب غيره . . . وانا اخبرك اني قد رأيت منهم  
شيئا عجيبا وامرا غريبا : رأيت في بعض غزوات السامون سماطي خيل على  
جنيتي الطريق بقرب المنزل ، مائة فارس من الاتراك في الجانب  
الايمن ومائة من سائر الناس في الجانب الايسر ، وانا هم

- 
- (١) الجاحظ ، " رسالة في مناقب الترك " ، رسائل الجاحظ ، ١ : ٦٥ .
  - (٢) الجاحظ ، " رسالة في مناقب الترك " ، رسائل الجاحظ ، ٣ : ٢٠٢ - ٢٠٥ .
  - (٣) المصدر نفسه ، ٣ : ٢٠٦ .
  - (٤) لان التركي هو الراعي والسائس والرائض والنخاس وهو البيطار وهو الفارس ، راجع :  
المصدر نفسه ، ٣ : ٢٠٧ .



قد اصطفوا ينتظرون مجي' المؤمن ، وقد انتصف النهار واشتد الحر .  
فورد عليهم وجمع الاتراك جلوس على ظهور خيولهم الا ثلاثة او اربعة ،  
وجميع تلك الاخلاط من الجند قد رموا بنفوسهم الى الارض الا ثلاثة  
او اربعة . فقلت لصاحب لي : انظر اى شي' اتفق لنا . اشهدان المعتصم  
كان اعرف بهم حين جمعهم واصطنعهم . (١) .

كما عبر عن خصائصهم النفسية حين ذكر ان الوحدة الفكرية وسرعة البداهة  
تربطان بين قلوبهم جميعا على هدف تنظيمي واحد :

" . . . والاتراك اذا صاقوا جيشا ان كان في القوم موضع عورة ، فكلهم قد  
ابصرها وعرفها ؛ وان لم تكن هناك عورة ولم يكن فيهم مطمع ، وكان الرأى  
الانصراف ، فكلهم قد رأى ذلك الرأى وعرف الصواب فيه . وخواطرهم

---

(١) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٣ : ١٦١ رسالة في مناقب الترك ، رسائل  
الجاحظ ، ج ٣ : ٢٠٧-٢٠٨ ، وج ١ : ٦١-٦٢ . ويشير الجاحظ بذلك  
الى استقدام المعتصم الترك باعداد كبيرة الى سامرا سنة ٢٢١ هـ / ٨٣٦ م ،  
وذلك لضيق بغداد على عسكره . انظر : احمد بن شاکر الكتبي ، فوات الوفيات ،  
تحقيق احسان عباس ( بيروت : دار الثقافة ، ١٩٧٤ ) ج ٤ : ٤٩ . ويرى  
كاتب مادة سامرا في دائرة المعارف الاسلامية ان المعتصم بنى سامرا ( بهمن  
تكريت وبغداد ) خوفا من ثورات جنوده الترك المستأجرين للخدمة في الجيش  
العباسي . انظر :

Encyclopaedia of Islam, old edition s.v. "Samarra," by H. Violett.

وكذلك قال المستشرق وليام موير ان المجتمع البغدادي لم يتحمل وجسود  
الاتراك ولذلك بنى المعتصم سامرا التي تبعد ستين ميلا الى الشمال من  
بغداد ، والتي استمرت عاصمة الخلافة من ٨٣٦ - ٨٩٤ م وذلك لسبعة خلفاء  
من بعده ، كانوا يقعون يوما بعد يوم في قبضة من استقدموهم لنصرتهم . راجع :

William Muir, The Caliphate: Its Rise, Decline and Fall.  
(Edinburgh, 1915), p. 512-513.

واحدة، ودوا عنهم مستوية باقبالهم معا . وليس هم اصحاب تأويلات  
ولا اصحاب تفاخر وتناشد ، وانما شأنهم احكام امرهم ؛ فالاختلاف يقبل  
بينهم . (١)

وغير خفي ان الجاحظ من خلال تزكية الترك يهدف الى تشجيع مستشارى الدولة  
العباسية على اختيار هذا الصنف المتجاوب في قوته وبساطته لخدمة الخلافة العباسية .  
قال :

" والاتراك قوم لا يعرفون الطق ولا الخلافة ، ولا النفاق ولا السعاية ،  
ولا التصنع ولا النميمة ، ولا الرياء ، ولا البذخ على الاولياء ، ولا البغسي  
على الخلطاء ، ولا يعرفون الهدع ، ولم تفسد هم الا هوا . . . . (٢)

ومناقب الترك المذكورة ترجع الى كونهم " اصحاب عمد وسكان فياف وارباب  
مواش وهم اعراب العجم كما ان هذيل اكراد العرب " . (٣) ومع ان الترك والخوارج  
بدويو الاصل ، فان الكفاة البدنية الحربية للترك فاقت كفاة الخوارج القتالية ، مضرب  
المثل في القوة آنذاك . اى ان بدائة الترك تفوقت على بدائة الخوارج لان الاغراق  
في البدائة مدعاة للتفوق والنصر والغلبة (٤) . وقد عبر الجاحظ عن ذلك بلسان احد  
امراء الدولة العباسية من حضر مجلس رسول الخليفة المؤمن ، بعد ان طرح الرسول  
سؤالاً على القادة العسكريين : ايجبون ان يلقوا مئة تركي او مئة خارجي في حال  
مواجهة قتالية ، فانفرد الامير بقوله :

- 
- (١) الجاحظ ، رسالة في مناقب الترك ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٥٥ .
  - (٢) المصدر نفسه ، ص ٦٢ - ٦٣ .
  - (٣) رسالة في مناقب الترك ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٧٠ - ٧١ +
  - (٤) من الممكن ان يكون ابن خلدون قد تأثر بهذه المقولة وهي واضحة في كتابه  
العبر وديوان السبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ، ( القاهرة : بولاق ،  
١٢٨٤ ) ج ١ حين ذكر ان الامم البدوية سبباً لغلبة غيرها لانها مشبعة بالشجاعة  
والقوة التي توفرها البدائة . قال ابن خلدون : " وكذلك كل حي من العرب يلي نعيماً  
وعيشاً خصباً من الحي الآخر ، فان الحي المبتدى يكون اغلب له واقدر عليه اذا  
تكافأ في القوة والعدد ، سنة الله في خلقه " فالبدائة في نظره سبب في النصر . راجع  
فصل في ان اهل البدو اقرب الى الشجاعة من اهل الحضرة ص ١٠٥ وان الامم الوحشية  
اقدر على التغلب ، ص ١١٥ - ١١٦ .

"... بل القى مائة خارجي احب التي ، لاني وجدت الخصال التي  
يفضل بها الخارجي جميع المعاتلة غير تامة في الخارجي ، ووجدتها  
تامة في التركي ، ففضل التركي على الخارجي بقدر فضل الخارجي على  
سائر المعاتلة... ثم بان التركي من الخارجي بامور ليس فيها للخارجي  
دعوى ولا تتعلق... (١)"

وقد عبر الجاحظ عن التصاق مفهوم قادة الترك للقوة بما هو ماثل امامهم  
في عالم الحيوان والبادية :

"... كان عظاما الترك يقولون للقائد العظيم القيادة : لا بد ان تكون  
فيه عشر خصال من اخلاق الحيوان : سخاء الديك ، وتحنن الدجاجة ،  
وقلب الاسد ، وحيلة الخنزير ، وروغان الثعلب ، وختل الذئب ، وصبر  
الكلب على الجراحة ، وحذر الغراب ، وحراسة الكركي ، وهداية  
الحمام (٢)"

وقد تقصى الجاحظ علّة تفوق التركي واندفاعه في القتال ، فوجد ان للتركي  
شجاعة ونجدة ذاتية مستقلة عن العوامل والدوافع التي تثير نجدة المقاتل العربي  
وتحمّله ، حتى اذا عرضت له تلك العوامل كانت نجدة مضاعفة وقاتله اشد :

" قال : ورأينا التركي في بلاده ليس يقاتل على دين ولا على تأويل ،  
ولا على ملك ولا على خراج ، ولا على عصبية ولا على غيرة دون الحرمة والمحرم ،  
ولا على حمية ولا على عداوة ، ولا على وطن ومنع دار ولا مال ؛ وانما يقاتل على  
السلب والخيار في يده... فما ظنك بمن هذه صفته ان لو اضطره  
احراج او غيرة او غضب او تدين ، او عرض له بعض ما يصعب المقاتل  
الصحابي من العلل والاسباب ؟ (٣)"

وقد بلغ اعجاب الجاحظ بهذه الامة ان اضاف لها من المناقب التي كان قد  
نسبها من قبل الى العرب واليونان والصين . وهو امر لم نعهده في مواقف الجاحظ التي

(١) الجاحظ ، "رسالة في مناقب الترك" ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٤١ .

(٢) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٢ : ٣٥٣ - ٣٥٤ .

(٣) الجاحظ ، "رسالة في مناقب الترك" ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٥٢ .

تميل الى جعل كل امة مخصوصة بلون حضارى معين . والجديد هنا ان الجاحظ لم يحكم للترك بذلك على سبيل الاطلاق ، وانما قال ان ذلك مرتبط ويمكن لو كان في بلادهم انبيا وحكما . قال :

" . . . ولو كان في شقهم انبيا وفي ارضهم حكما وكانت هذه الخواطر قد مرت على قلوبهم وقرعت اسماعهم ، لأنسوك ادب المصريين وحكمة اليونانيين وصنعة اهل الصين . " (١)

ولعلنا لا نبعد عن الصواب اذا قلنا ان الترك من بين جميع الامم العجيبة تأتي في نظر الجاحظ في المرتبة الاجتماعية بعد العرب اومع العرب نظرا لثمتعها بهذه الخصائص . ولولا النص المذكور اعلاه الذى لحظ فيه الجاحظ امكان التترك النفسى في مشاركة الامم المعتبرة مناقبها ، لكنا قلنا ان الجاحظ لم يلحظ في الترك سوى خصيصة الفروسية ومعاني الحرب . ولكن الجاحظ ما يلبث ان يعود الى موقفه فسوى اختصاص الامم ، فيقرر ان الترك وان كانت مسخرة لانتظام معاني الحرب فان هذا التفوق في منزلة تفوق سائر الامم المعتبرة في الخصلة الاغلب على كل منها . قال :

" . . . ولم يكن همهم غير الغزو والغارة والصيد وركوب الخيل ، ومقارعة الابطال ، وطلب الغنائم وتدويخ البلدان ، وكانت همهم الى ذلك مصروفة وكانت لهذه المعاني والاسباب مسخرة ومقصورة عليها ، وموصولة بها ، احكموا ذلك الامر باسره واتوا على آخره وصار ذلك هو صناعتهم وتجارتهم ولذتهم وفخرهم وحديثهم وسمرهم . فلما كانوا كذلك ، صاروا في الحرب كاليونانيين في الحكمة ، واهل الصين في الصناعات ، والاعراب فيما عدونا ونزلنا ، وكال ساسان في الطك والرياسة . " (٢)

وكعادة الجاحظ في نسبة الفضائل الى الله ، رأى الجاحظ ان الترك ما كانت لتبلغ هذه المنزلة من الفضل في الحروب لو لم يسخرها الله لذلك المعنى بالاسباب

(١) الجاحظ ، " رسالة في مناقب الترك " ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٦٠ .

(٢) الجاحظ ، " رسالة في مناقب الترك " ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٧١ .

ويقصرها عليه بالعلل التي تقابل تلك الامور وتحقق تلك المعاني ، كما تصافهم بالحلم والعلم والعزم والصبر والكتمان والخبرة بالرجال والبلاد . قال :

" ثم اعلم ان كل امه وقرن وكل جيل وبني اب وجدتهم قد برعوا في الصناعات وفضلوا الناس في البيان ، وفاقوهم في الآداب ، وفي تأسيس الملك ، وفي البصر بالحرب ، فانك لاتجدهم في الغاية وفي اقصى النهاية ، الا ان يكون الله قد سخرهم لذلك المعنى بالاسباب ، وقصرهم عليه بالعلل التي تقابل تلك الامور ، وتصلح لتلك المعاني ؛ . . . وهي معان تشتمل على مذاهب غريبة وخصال عجيبة . فمنها : ما يقضى لاهله بالكرم وبالعهد الهمة وطلب الغاية ، ومنها ما يدل على الادب الشديد والرأى الاصيل ، والفطنة الثاقبة والبصيرة النافذة . الا ترى انه ليس بد لصاحب الحرب من الحلم والعلم ، والعزم والعزم ، والصبر والكتمان ، ومن الثقافة وقلة الغفلة وكثرة التجربة . ولا بد من البصر بالخيال والسلاح والخبرة بالرجال والبلاد والعلم بالمكان والزمان والمكايد ، وبما فيه صلاح هذه الامور كلها . " (١)

وقد ارفق الجاحظ ملاحظاته في الترك باستدراك مفاده ان اخلاق التسرك ليست واقعا نفسيا يصدق على جميعهم وانما هو الاغلب عليهم والظاهر (٢).

---

(١) المصدر السابق ، ص ٦٢ و ٧٣ .

(٢) انظر : المصدر نفسه ، ص ٧٣ .

انسجاما مع مقولة الجاحظ التي ترى ان " لكل امة نصيبا من النقص ومقدارا من الذنوب . . . وانما يتفاضل الناس بكثرة المحاسن وقلة المساوي" (١) ، فان الترك ايضا لم تسلم من النقد لان الاشتغال على جميع المحاسن والسلامة من جميع المساوي دقيقتها وجليلها وظاهرها وخفيها ، فهذا لا يعرف (٢) وقد حشد الجاحظ عيوب الترك بقوله :

" . . . والذي يوحش منهم ، الحنين الى الاوطان ، وحب التقلب في البلدان ، والصبابة بالفارات ، والشغف بالنهب ، وشدة الالف للعادة ، مع ما كانوا يتذكرون من سرور الظفر وتتابعه ، وحلاوة المغنم وكترته ، وملاعبهم في تلك الصحارى ، وترددهم في تلك المروج ، والا يذهب بطول الفراغ فضل نجدتهم باطلا ، ويصير حدهم على طول الايام قليلا " (٣)

والملاحظ ان الجاحظ في عرض ماأخذه على الترك قد سلك مسلكا تعليميا - ان لم يكن متعاطفا ، مع هذا الجنس الحيوى للخلافة العباسية . اما بالنسبة الى حب تغلبهم في البلدان والصبابة بالفارات ، فقد ردهما الجاحظ الى نزعتهم الحركية الغالبة عليهم :

" ومن حذق شيئا لم يصبر عنه ومن كره امرا فرمته . . . ذلك ان الترك قوم يشد عليهم الحصر والجثوم ، وطول اللبث والمكث ، وقلة التصرف والتحرك ، واصل بنيتهم انما وضع على الحركة ، وليس للسكون فيهم نصيب . . . " (٤)

واما خصلة الحنين الى الوطن فقد ردها الجاحظ الى شدة مناسبة تركيبهم وبنيتهم للبيئة الجغرافية والاجتماعية في وطنهم قال :

" وانما خصوا بالحنين من بين جميع العجم لان في تركيبهم واخصلاط طباعهم من تركيب بلدهم وتربيتهم ، ومشاكله مياهم ومناسبة اخوانهم ،

(١) الجاحظ ، " رسالة في مناقب الترك " ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٣٧ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٦٢ - ٦٣ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٦٥ و٦٣ .

ما ليس مع احد سواهم . الا ترى انك ترى البصرى فلا تدري أبصرى هوام كوفي . . . وانت لا تغلط في التركي ، ولا تحتاج فيه الى قيافة ولا الى فراسة ، ونساؤهم كرجالهم ، ودوابهم تركية مثلهم (١) . . . ومحببة الوطن شي\* شامل لجميع الناس . . . ولكن ذاك في الترك اغلب ، وفيها ارسخ ؛ لما معها من خاصة المشاكلة والمناسبة ، واستواء الشبه وتكافؤي التركيب . . . (٢)

كما ان جهل قادة الترك باقدارهم ، وعدم انزالهم المنزل اللائق بهم في فئة المقاتلة ، ضاعف من حنينهم الى بلدهم وكرهه عندهم المقام :

" ومن اعظم ما كان يدعو الترك الى الشرود ويبعثهم على الرجوع ، ويكرهه عندهم المقام ، ما كانوا فيه من جهل قوادهم باقدارهم ، وقلة معرفتهم باخطارهم ، واغفالهم موضع الانتفاع بهم . . . ولم يقنعوا ان يكونوا في العاشية والحشوة ، وفي غمار العاعة ، ومن عرض العساكر ، وانفوا من ذلك لانفسهم ، ورأوا ان الضيم لا يليق بهم ؛ وان الخمول لا يجوز عليهم . . . (٣)

بيد ان الجاحظ سرعان ما استدرك بقوله ان خصلة الحنين الى الوطن لم تستمر في التأجج في نفوس الترك بعد ان " صادفوا ملكا حكما ، وباقدار الناس عليما ، لا يميل الى سوء عادة ولا يجنح الى هوى ولا يتعصب لبلد على بلد ، يدور مع التدبير حيثما دار ويقيم مع الحق حيثما اقام " . (٤) ان ذاك تغلبوا على اشواقهم وعاداتهم ، واقاموا اقامة من قد منح الحظ ودان بالحق ونبذ العادة وآثر الحقيقة ، ورحل نفسه

(١) وقد ذكر الجاحظ ذلك في "كتاب البغال" ، رسائل الجاحظ ، حيث صرح انه دخل بلاد الترك ووجد كل شي\* فيها تركيا . راجع "كتاب البغال" ، رسائل الجاحظ ،

ج ٢ : ٣١٣

(٢) الجاحظ ، "رسالة في مناقب الترك" ، رسائل الجاحظ ، ١ : ٦٤ و٦٣ .

(٣) الجاحظ ، "رسالة في مناقب الترك" ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٦٦ .

(٤) المصدر نفسه . ولعل الجاحظ يقصد بذلك الخليفة المتوكل التركي الام . والجدير

بالذكر ان الرسالة هذه كانت في الاساس موجهة الى الخليفة المعتصم لكنها لم

تصل اليه\* لاسباب يطول شرحها\* ص ٣٦ من الرسالة المذكورة . وقد فسرهما

زكريا كتابي بعامل خوف الجاحظ من كان حول المعتصم من المتعصبين للقومية =

لقطيعة وطنه وآثر الامة على ملك الجبرية واختار الصواب على الالف \* (١) .  
وقد اخذ الجاحظ على الاتراك الضعف الذي اعترى احدى قبائلها وهي  
التغزغز (٢) ، وهو ضعف اصابها في شجاعتها وشهامتها اثر تدبيرها بالزندقة مماثل لما  
اصاب الروم اثر تدبيرها بالنصرانية . قال :  
" . . . والى مثل ذلك صارت حال التغزغز من الترك ، بعد ان كانوا  
انجادهم وحماتهم وكانوا يتقدمون الخرخية (٣) ، وان كانوا في العدد

---

(=) العربية والحاقدين على الترك ما دفع الجاحظ بالانتظار الى حين تبلسغ  
سطوة الترك اوجها وكان ذلك في عهد الستوكل . انظر الترك في مؤلفات  
الجاحظ ، ص ١٩٨-١٩٩ .

(١) الجاحظ ، "رسالة في مناقب الترك" ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٦٧ .  
(٢) (٣) التغزغز والخرلخية قبيلتان من اصل تركي مجاورتان للبلاد الاسلامية ، اى في  
منطقة ما وراء النهر ، وكانتا تتكلمان لغة واحدة . وكان على من يريد الوصول الى  
بلاد الصين ، المرور ببلاد التغزغز والخرلخية او القرلق . وذلك انطلاقا من  
فرغانة ، التي تقع شمال نهر سرداريا في مدة شهر للوصول الى بلاد القرلق  
فالتغزغز . وتستغرق الرحلة منهما الى الصين مدة شهرين . راجع :

Encyclopaedia of Islam, old edition, s.v. "Turks," by W. Barthold  
Encyclopaedia of Islam, old. ed., s.v. "Toghuzghuz," by W. Barthold.

ويرى صالح احمد العلي في تحقيقه لرسالة الجاحظ " الاوطان والبلدان " ان  
الخرلخية هو الاسم الذي اطلقه العرب على قبيلة قارلوق التركية التي كانت  
تسكن اراضي شاسعة شرقي فرغانة . واما التغزغز فالاسم الذي اطلقه العرب  
على قبيلة طوغوز اوغوز اى التسعة اوغوز التركية التي سكنت الاراضي الواقعة في  
الشمال الغربي من مناطق الخرخية وتمتد الى بلاد الصين . انظر احمد صالح  
العلي ، كتاب البلدان ، ( بغداد : مطبعة الحكومة ، ١٩٧٠ ) مستل  
من مجلة كلية الآداب ، ص ٤٧١ .

واما زكريا كتابجي فقد رأى ان الخرخية كانوا عبيدا للتغزغز وعصوا عليهم وخرجوا  
الى بلاد التركستية ، واستولوا عليهم وقهروا سلطانهم ومنها خرجوا الى بلاد  
الاسلام وهم تسع فرق ، في حين بقي الغز دونهم ثقافة . انظر ايضا :

Encyclopaedia of Islam, new ed., s.v. "Karluk," by C.E. Bosworth.

ورأى كتابجي ايضا ان التغزغز ليست الا قبيلة واحدة من اثنتي عشرة قبيلة تدعى  
بالغز او الغزية وهي من اكبر قبائل الاتراك التي تفرع السلاجقة والعثمانيون (=)



اضعافهم . فلما دانوا بالزندقة - ودين الزندقة في الكف والسلم اسوأ  
من دين النصارى - نقصت تلك الشجاعة ، وذهبت تلك الشهامة . . . حتى  
اعتراهم مثلما يعترى الجبناء حتى صاروا يتكلمون القتال تكلفا . . . وخرجوا  
من حدود الغالبية الى ان صاروا مغلوبين . (١)

اي ان الجاحظ رأى ان الاثراك المستقدمين من وراء النهر لخدمة الخلافة  
لم يكونوا جميعا شجعانا وانه كان يعترى بعضهم الجبن كما تقدم .

---

(٢) منها ، بهيد انه لم يذكر الضعف الذي اشار اليه الجاحظ وانما قال اعتمادا  
على معجم البلدان لياقوت الحموي : " ليس في ملوك العالم اشد من رجال  
ملك التغرغز ، ولا اجراً منه على سفك الدماء " . راجع : زكريا كسابجي ، التسرك  
في مؤلفات الجاحظ ، ص ٣٠-٣٤ . وقد سقى المؤلف الخرخية بالخرلجوخ  
ايضا . والجدير بالذكر ان الجاحظ نفسه حين كرر ما اخذه على التغرغز فسي  
كتابه التربيع والتدوير ( تحقيق شارل بلا ) الفقرة ١٣٨ ، ص ٧٧ - نفس  
ما ذكره عن الروم اعلاه ، وقال : " فما بال الروم تمنع ان تسترق وان تسلب ولهم  
من دينهم قتال ولا جدال ولا مكافحة ولا دفع ؟ "

(١) الجاحظ ، " كتابه في الاوطان والبلدان " ، رسائل الجاحظ ، ج ٤ : ١٢٦-١٢٧ .

## الفصل السادس

### الصين

#### آراء الجاحظ في الصين :

رأى الجاحظ ان اهل الصين قد خصوا من بين جميع الامم ، بالصناعات اليدوية قال :

" فاما سكان الصين فانهم اصحاب السبك والصياغة والافراغ والازابة ، والاصباغ العجمية ، واصحاب الخرط والنجر والتصاوير ، والنسج والخط . ورفق الكف في كل شي يتولونه ويعانونه ، وان اختلف جوهره ، وتباينت صنعة ، وتفاوت ثمنه . (1)

وقال الجاحظ ان هذا الفضل ما فتحه الله على سكان ذلك الاقليم ، انسجاما مع نظرت التي ترى اختصاص امة ما يعود الى كونها سخرة من الله بعلة واسباب للوصول الى ذلك الواقع السيز . قال :

" . . . الا ترى ان اهل الصين والتبت ، حدّاق الصناعات ، لها فيها الرفق والحدق ، ولطف المداخل ، والاتساع في ذلك ، والغوص على فاضه ومعينه ، وليس عندهم الا ذلك . فقد يفتح لقوم في باب الصناعات ولا يفتح لهم في سوى ذلك . . . ثم اعلم بعد ذلك كله ان كل امة وقسوم وجيل ونياب وجدتهم قد برعوا في الصناعات ، وفضلوا الناس فسي البيان ، او فاقوهم في الآداب ، او في تأسيس الطك . . . فانك لا تجدهم في الغاية وفي اقصى النهاية ، الا ان يكون الله تعالى قد سخرهم لذلك المعنى بالاسباب ، وقصرهم عليه بالعلل التي تقابل تلك الامور وتصالح لتلك المعاني . لان من كان متقسّم الهوى ، مشترك الرأي ، متشعب النفس ، غير موّفر على ذلك الشئ ، ولا مهياً له ، لم يحذق من تلك

(1) الجاحظ ، "رسالة في مناقب الترك" ، رسائل الجاحظ ، ج ٣ : ٢١٥ - ٢١٦ . وفي رأى الجاحظ ان اهل الصين مقدمون على الروم في هذه الصناعات . راجع كتاب التربيع والتدوير ، تحقيق شارل بلا ، الفقرة ٦٤ ، الصفحة ٣٧ .

الاشياء شيئا باسره ، ولم يبلغ فيه غايته ، كأهل الصين في الصناعات ،  
واليونانيين في الحكم والآداب . . . . (١)

اي ان واقع الفضل لامة ما له وجهان : الوجه الالهي الذي يقسم ذلك  
الفضل فيفتح بابه لامة دون غيرها ، والوجه البشري الذي يمثل الاستعداد النفسي  
الارادي القابل لذلك الحكم الالهي . ولكن باب الصناعات الذي فتح لليونان  
وللصين لم يبلغ طابع الحكمة لدى اليونان على انه الاغلب عليهم في حين هو الطابع  
الوحيد الغالب على اهل الصين ، لانه في مفهوم الجاحظ لم يفتح لهم فضل غيره ،  
لان اهل اليونان مسخرة لتكون اهل حكمة ، واهل الصين مسخرة لتكون فعلة : قال :

” . . . فاليونانيون يعرفون العلل ولا يباشرون العمل ، وسكان الصين  
يباشرون العمل ولا يعرفون العلل ؛ لان اولئك حكما ، وهو لا فعلة . ” (٢)

وقد استدرك الجاحظ على حكمة التعميمي الذي اطلقه في اختصاص اهل الصين  
بالصناعات حين ذكر ان ذلك لا يلزم جميعهم ان يكونوا فعلة وحذاقا بالصناعات ، ولكن  
ذلك هو الاغلب عليهم والاعم والاظهر :

” وليس في الارض كل تركي كما وصفنا ، كما انه ليس كل يوناني حكيما ، ولا كل  
صيني حازقا . . . ولكن هذه الامور في هو لا اعم واتم ، وفيهم اظهـر  
واكثر . ” (٣)

وواضح من استدراك الجاحظ اعلاه انه ان كان ينطبق على الامم المعتبرة التي  
فتح امامها اكثر من فضل واحد ، ثم غلب عليها فضل منها ، فان ذلك غير واضح مع  
الصين الذين لم يفتح امامهم سوى فضل واحد كما بين الجاحظ .  
وتجدر الاشارة الى ان الجاحظ لم ينف مقولة السودان في معرض فخرها على  
البيضان ، ان اهل الصين يعدون من السودان . (٤) كما ان الجاحظ اورد مقولة لسنن

---

(١) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٥ : ٣٦ وايضا : رسالة في مناقب الترك ، رسائل الجاحظ ،

٣ : ٢١٣ - ٢١٤ .

(٢) الجاحظ ، ” رسالة في مناقب الترك ” ، رسائل الجاحظ ، ٣ : ٢١٦ .

(٣) الجاحظ ، ” رسالة في مناقب الترك ” ، رسائل الجاحظ ، ج ٣ : ٢١٩ .

(٤) الجاحظ ، ” رسالة في فضل السودان على البيضان ” ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٢١٦ .

دخل بلاد الصين من تجار التبت ، مشيراً الى السرور الذي اعتراه طيلة مكوثه فيها ، قال :

" ويزعم تجار التبت من قد دخل الصين والزابج (١) وقلب تلك الجزائر  
ونقب في البلاد ان كل من اقام بقصبة تبت ، اعتراه سرور لا يدري ما سببه  
ولا يزال متبسماً ضاحكاً من غير عجب حتى يخرج منها . . ." (٢)

ويعتد ، فان الجاحظ لم يتناول اهل الصين بالنقد وذلك في جميع  
كتابه التي وصلتنا .

---

(١) الزابج اسم جزيرة قرب الصين وهي تعرف اليوم بسومطره . ذكر المستشرق غابرييل  
فيراند في دائرة المعارف الاسلامية قول ابن خردادبه عنها وهوان ملكا يدعى  
اسحق بن عمران المتوفى ٩٠٧ م كان يحكمها ويحكم " كله " وان جزيرة الزابج  
كانت مشهورة بالكافور . كما نقل المستشرق المذكور قول الادريسي (١١٥٤ م) ان  
سكان جزر الزابج كانوا يأتون الى بلاد الزنج بواسطة السفن وان لغتهم كانت  
واحدة . وخطأ المستشرق قول السعدي ان جزر الزابج وكه وسرنداب (سيلان)  
كانت ملوكة من قبل السهراجا . انظر :

Encyclopaedia of Islam, old edition, s.v. "Zabag," by Gabriel Ferrand .

والجدير بالذكر ان الجاحظ عدّ الزابج في آخر اطواق العمان . انظر  
" رسالة في فخر السودان على البيضان " ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٢١٨ . كما  
انه ذكرها في كتاب التربيع والتدوير بتحقيق شارل بلا ، الفقرة ٦٤ الصفحة ٣٧ .  
والزابج تلفظ بفتح الباء وكسرهما ايضاً .  
(٢) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٧ : ٢٣٠ .

## الفصل السابع

### اليونان

#### مناقِب اليونان

نسب الجاحظ الى اليونان معرفتها بالحكمة والصناعات . الا انه شدد على غلبة طابع الحكمة عليهم واكتفائهم في صناعتهم بكل ما شأنه ان يجعل الحياة سعيدة " فاستخرجوا الآلات والادوات والملاهي التي تكون جماما للنفس وراحة بعد الكد وسرورا يداوى قرح الهموم" (١). وتفسير غلبة طابع الحكمة عليهم في رأى الجاحظ ان اليونانيين كانوا " اصحاب حكمة ولم يكونوا فعلة . . . يرغبون في العلم ويرغبون عن العمل . . . فلم يكونوا تجارا ولا صناعا باكتفهم ولا اصحاب زرع ولا فلاحة ومنا" وغرس ولا اصحاب جمع ومنع وحرص وكد" (٢) اما انواع الصناعات فقد ذكرها الجاحظ بقوله :

" . . . وصنعوا من المرافق ، وصاغوا من النافع كالقرصطونات ، (٣) والقبانات ، والاسطرلابات (٤) ، وآلة الساعات ، وكالكونيا (٥) ،

(١) الجاحظ ، "رسالة في مناقب الترك" ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٦٧ و٦٨ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) القرصطون ضرب من القبان . انظر: الجاحظ، كتاب الحيوان ، ١ : ٨١ والجديسر

بالذکر انه نسب للروم هذه الصناعة . انظر "مقالة الاخبار وكيف تصح" ، ص ٩٨-٩٩ .

(٤) الاسطرلاب او الاطرلاب مقياس النجوم والكلمة مأخوذة عن اليونانية اطرلابون

واطر هو النجم ولايون هو المرأة ٣ نظر الخوارزمي ، مفاتيح العلوم ، تحقيق فان

فلوتن ( ليدن : بريل ، ١٩٦٨ ) ص ٢٣٢ . والكلمة نفسها تفيد عدة آلات تخدم

امورا نظرية وعملية في علم الفلك والآلات لقياس خطوط الطول والعرض والآلات لقياس

الوقت . ولكن الجاحظ اعلاه يقصد بها الآلة التي يعرف بها هيئة الفلك وصورة

الكواكب ، دون سائر الآلات . ان كلمة اسطرلاب حين تستعمل مفردة يقصد بها

المعنى المذكور ، اى الاسطرلاب المسطح الذى يعرف بالعربية بذات الصفايح ؛

من الصفيحة او الآلة التي تشمل صفايح واسطوانات لمعرفة صورة الكواكب . راجع :

Encyclopaedia of Islam, new edition, s.v. "Aṣṭurlāb," by W. Hartner.

(٥) الكونيا هي اداة للنجارين يقدرن بها الزاوية القائمة . انظر: الخوارزمي ، مفاتيح

العلوم ، ص ٣٥٥ .

وكالشيذان (١) ، والبركار (٢) ، وكأصناف المزامير والمعازف ، وكالطبيب  
والحساب والهندسة واللحون ، وآلات الحرب كالمجانيق ، والمعزادات (٣) ،  
والرتيلات ، والدبابات (٤) ، وآلة النقاط (٥) ، وغير ذلك مما يطسول  
ذكره . (٦)

وقد عدّ الجاحظ اليونان " اصحاب حكمة وفلسفة وصناعة منطوق " (٧) مكتفيا بتسمية  
اهم حكما اليونان وعلماهم وكتبهم وبذكر بعض مقولات الحكمة لديهم . اما حكما اليونان  
وكتبهم فقال فيها :

- (١) لم اهتد الى معناها . وفي دائرة المعارف الاسلامية اشارة الى معبد شيز  
Shiz وهو غير مقصود اعلاه . وقد اخبرني الدكتور ماجد فخري ان الكلمة  
المذكورة تحتل تحريفا لان لا وجود للشين في اليونانية ولعل الجاحظ يريد  
{ uyo'v ( الكيسفون ) وهي تعني النير ، آلة الفلاحة والحراث التي توضع على  
رأس الثور .
- (٢) آلة هندسية مركبة من ساقين متصلتين تثبت احدهما وتدور حولها الاخرى ترسم  
بها الدوائر والاقواس . تسمى بالعامية " البرجل " وهي في الفارسية " بركار " . انظر  
حاشية رقم ٦ ، " رسالة في مناقب الترك " ، رسائل الجاحظ ، تعليق عبد السلام  
هارون ج ١ : ٦٨ . والخوارزمي ، مفاتيح العلوم ، ص ٣٥٤ .
- (٣) المرادة منجنيق صغير والمنجنيق من آلات الحروب ترمى بها الحجارة فسي  
القتال . انظر : مفاتيح العلوم ، ٣٤٩ .
- (٤) ذكرها الجاحظ في كتاب الحيوان ، ١ : ٨٢ وقال المحقق هارون انها آلة تتخذ للحرب  
تدفع في اصل الحصن فينقبونه وهم في جوفها وانظر الحاشية التالية .
- (٥) الدبابات وآلة النقاط او النقاطات من الآلات المتحركة التي عرفت عند العرب  
بعلم الحيل . وكان يوضع في النقاطة باب المدفع وباب السيف . انظر : مفاتيح  
العلوم ، ص ٣٥٤ . وآلة النقاط هي غير النقاطة ، اسم احدى النجوم السيارة .  
المصدر نفسه ، ٢١٣ .
- (٦) الجاحظ ، رسالة في مناقب الترك ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٦٨ - ٦٩ .
- (٧) الجاحظ ، البيان والتهيين ، ٣ : ٢٧ - ٢٩ .

"... ان كتاب المنطق والكن والفساد، وكتاب العلوى (١) ، وغير ذلك لارسطاطالميس ، وليس برومي ولا نصراني . وكتاب المجسطي لبطليموس وليس برومي ولا نصراني . وكتاب اقليدس (٢) لاقليدس ، وليس برومي ولا نصراني . وكتاب الطب لجالينوس ، ولم يكن روميا ولا نصرانيا . وكذلك كتب ديمقراط وبقراط وافلاطون ، وهو "اناس من امة قد بادوا وقيست آثار عقولهم ، وهم اليونانيون ... وقد علمنا ونحن على حداثة أسناننا وتقدم الناس قبلنا ، ان جالينوس قد كان باثنا في طبه وان الارسطاطالميس كان البائن في المنطق " (٣) .

ويعكس النص اعلاه تأكيد الجاحظ على الفرق بين امة اليونان وامة الروم . فالاولى امة بادت ولم يبق سوى آثار عقولها والثانية امة ذات ملك ورثت آثار اليونان الفكرية "لقرب الجوار وتداني الدار" (٤) . ولكن الجاحظ لا يقرب بالفضل لامة الروم التي حفظت تراث اليونان من الضياع ، ودفنت كتب اليونان في خزائنها دون ان تنتفع بها ، بل يدين بالفضل الى امة اليونان وان كانت قد انقرضت منذ عصور كثيرة ... (٥)

- 
- (١) هو كتاب الآثار العلوية كما دعاه الجاحظ في كتاب الحيوان ٦ : ٢٨٠ وقد ترجمه يحيى بن عسدي وهو يعرف بـ "De Meteorologica" اي العلم الذي يتعلق بشؤون الرعد والبرق والخسوف والكسوف والمد والجزر ، انظر ابن النديم ، الفهرست ( بيروت : مكتبة خياط ١٩٦٤ ) تحقيق غوستاف فلوجل ، ص ٢٥١ .
- (٢) نسب الجاحظ لاقليدس وجالينوس وبطليموس " علوم الصناعات والارفاق والآلات " ايضا . راجع كتاب الحيوان ١٤ : ٨٠ ولعل كتاب اقليدس هو كتاب النغم الذي يعرف بالموسيقى . انظر ابن النديم ، الفهرست ، ص ٢٦٦ .
- (٣) الجاحظ ، " كتاب في الرد على النصارى " ، رسائل الجاحظ ، ٣ : ٣١٤ . وكتاب العثمانية ، ص ٢٦٦ .
- (٤) الجاحظ ، كتاب في الرد على النصارى ، رسائل الجاحظ ، ٣ : ٣١٥ . وقد اشار الجاحظ الى اليونان ايضا في البيان والتبيين ١٤ : ١٨٨ فقال انهم من الامم البائدة من العجم .
- (٥) هذا الاستنتاج رده المستشرق فرانز روزنتال في كتابه :

Technique and Approach of Muslem Scholarship, p. 72-73.

وما يناقض هذا الاستنتاج ان الجاحظ في " كتابه الرد على النصارى " ج ٣ : ٣١٥ افاد بان الرومان تفاعلوا مع الفكر اليوناني حين اضافوا بعضه الى انفسهم (=)

اما مقولات الحكمة التي ذكرها الجاحظ لفلاسفة اليونان فقد وردت في معرض اشادته بنظام توريث العلم عند فلاسفة اليونان دون المال ، حيث يذكر ايضا مفهومهم لماهية الكتب النافعة ، التي طرحها ديمقراط :

" . . . وكانت فلاسفة اليونانية تورث البنات العين ، وتورث البنين الدين . . . وكانت تقول لا تورثوا الابن من المال ، الا ما يكون عوناً له على طلب المال ، واغذوه بحلاوة العلم ، واطبعوه على تعظيم الحكمة ليصير جمع العلم اظلب عليه من جمع المال ، وليرى انه العدة والعتاد ، وانه اكرم مستفاد . . . فخير ميراث ورث كتب وعلم . . . واما ديمقراط فانه قال : ينبغي ان يعرف انه لا بد من ان يكون لكل كتاب علم وضعه احد من الحكماء ، ثمانية اوجه : منها الهمة ، والمنفعة ، والنسبة ، والصحة ، والصنف ، والتأليف ، والاسناد ، والتدبير . فأولها ان تكون لصاحبه همة ، وان يكون فيما وضع منفعة ، وان يكون له نسبة ينسب اليها ، وان يكون صحيحاً وان يكون على صنف من اصناف الكتب معروفاً به ، وان يكون مؤتلفاً من اجزاء خمسة ، وان يكون مسنداً الى وجه من وجوه الحكمة ، وان يكون له تدبير موصوف . فذكر ان ابقراط قد جمع هذه الثمانية اوجه في هذا الكتاب ، وهو كتابه الذي يسمى " افوريسموا " ، تفسيره : كتاب الفصول . (١) "

(=) وحولوا البعض الآخر الى ملتهم . في رأى الجاحظ ان تفاعل الروم مع الفكر اليوناني امر تاريخي لا ينكر ، لكنه تفاعل اساساً الى الفكر اليوناني الموروث وادخل عليه مقولات الزندقة والدهرية . راجع : كتاب في الرد على النصارى ، رسائل الجاحظ ، ٣ : ٣١٥ . واخطأ روزنتال في استبعاده ان يكون الروم قد تفاعلوا مع تراث اليونان ، اما قوله ان الجاحظ لا يقر بفضل الرومان ، فهو له ما يؤيده في كلام الجاحظ الذي تقدم .

(١) كتاب الفصول لابقراط شرحه موفق الدين عبداللطيف البغدادي ( ت ٦٢٩ ) والاصح كتابته " افوريسموى " وهي صيغة الجمع وتعني المأثور من الحكمة . وهى aphorism " بالفرد و " aphorismoi " بالجمع . والنص اعلاه من كتاب الحيوان ١ : ٩٨ - ٩٩ و ١٠١ - ١٠٢ . وتجدر الاشارة الى انه كان لارسطواو " صاحب المنطق " كما يدعوه الجاحظ ، الحظ الا وفر بين علماء اليونان ، من اشارات الجاحظ الى كتابه " في علوم الحيوان " الذي يقع فسي (=)



ومن مقولات الحكمة لدى اليونان ما ذكره الجاحظ عن مفهومهم للعلم والعمل .

قال :

" . . . ايها احسن ؟ قول بقراط (١) مفسرا : العمر قصير والصناعة طويلة والزمان جديد . . . ام قول افلاطون مجملا : لولا ان في قلبي انسي لا اعلم تشبيها ، لاني اعلم ، لقلت اني لا اعلم ، ام تواضع ارشجانس (٢) حيث يقول : ليس معي من فضيلة العلوم الا علمي باني لست بعالم . . . وقول ديمقراط عالم معاند خير من عالم منصف جاهل . . . ثم انظر في قول ديسيوس (٣) لولا العمل لم يطلب علم . . . ثم انظر في قول تومقراط (٤) العلم روح والعمل بدن . . . وانظر في قول

---

( = ) تسع عشرة مقالة ترجمها يحيى بن البطريق وذكرها ابن النديم في الفهرست . ويعكس ذلك الاثر البهن الذي تركه الفكر اليوناني العلي في نفوس المفكرين المسلمين . راجع كتاب الحيوان للجاحظ . وفي كتابات الجاحظ تأثر واضح بمفهوم الاخلاط والامزجة الاربعة التي نادى بها الطبيب اليوناني جالينوس بين ١٣٠ و ٢٠١ للميلاد وهي الدم والبلغم والمرّة السوداء والمرّة الصفراء . راجع كتاب البخلاء ص ١٥٤ وكتاب التربيع والتدوير تحقيق بلا ص ٨٣ ، ورسالة في الجد والهزل ، رسائل الجاحظ ج ١ : ٢٣١ - ٢٧٨ ورسالة الجوابات في المعرفة ، المصدر نفسه ، ٤ : ٥٩ . كما يعكس كتاب التربيع والتدوير المذكور ، اهتماما باعلام الموسيقى والفكر لدى اليونان ، انظر الفقرة ١٥٠ ، ص ٨٢ من كتاب التربيع والتدوير .

(١) ورد في كتابات الجاحظ بصيغة ابقراط ايضا وهي المعروفة في المصادر العربية .

(٢) اما ان يكون احد تلامذة سقراط ، ايسخانيس Aischnes فتكون التهجة العربية غير صحيحة لاسمه الحقيقي المقترح ، او ان يكون كما اقترح شارل بلا ، Arsiganus فتكون تهجة الجاحظ صحيحة ، وهو المذكور في فهرست ابن النديم .

(٣) قال الجاحظ عنه في كتاب الحيوان - ١ : ٢٨٩ ان ديسيوس " كان مرورا وله نوادر عجيبة ، ما من نادرة الا وهي غرة وعين من عيون النوادر " . وقال شارل بلا عنه انه عالم يوناني صاحب مؤلفات شهيرة لعلمي المرب في علم تحويل المواد الى ذهب . ويعرف في الترجمات اللاتينية ب Rosinus . روسينوس ، الا انه ورد في كتابات الجاحظ بلفظ رسيوس وزسيموس وديسيوس . انظر كتاب التربيع والتدوير ، تحقيق بلا ، ص ٤٦ من الفهرس .

(٤) لم اهدد الى ترجمته .

افليمون (١) : العلم كان من العمل والعمل غاية والعلم رائد . . وقبول  
ارسطاطاليس : ليس طلبى العلم طبعها في بلوغ قاصيته . . ولكن التمس  
ملا يسع جهله . . ثم انظر في قول مورسطوس (٢) عرفت اكثر المقصود  
واقل ما يوقف عليه من البسوط . . وقليل الكثير وكثير القليل كثير . .  
ثم انظر في قول ما سرجس (٣) : من قصر عن طلب العلم لرغبة اورهبة . .  
كان حظه من الرغبة وحظه من الرهبة على مقدار حق الرهبة . (٤)

وان النزعة الجدلية في ادب الجاحظ غير بعيدة عن اعجابه " باللفظ المنطقي " (٥)  
اليوناني الذى ذكره في كتاب الحيوان ، وعلمه " بان المقدمات لا بد ان تكون اضطرارية ،  
ولا بد ان تكون مرتبة " ، (٦) وهي اساليب ترجع الى اليونان ، وقد استعملها الجاحظ  
في كثير من كتاباته . (٧)

- 
- (١) كاتب اغريقي عاش في القرن الثاني قبل الميلاد ، وكان معاصرا لبقرط . قال المحقق  
عبد السلام هارون في تعليقه على قول الجاحظ ان " افليمون صاحب الفراسة " ان  
لافليمون تصنيفا مشهورا في الفراسة خرج من اليونانية الى العربية ، طبع فسي  
حلب سنة ١٣٤٧هـ / ١٩٢٩م يقع في خمس واربعين صفحة . انظر الجاحظ ،  
كتاب الحيوان ، ٣ : ١٤٦ .
- (٢) مؤلف يوناني له كتابات في الآلات الموسيقية ، لم تحفظ الا عند العرب . انظر  
كتاب التربيح والتدوير ، ص ٣٠ من الفهرس .
- (٣) ماسرجس طبيب يهودى من البصرة . ترجم عدة مؤلفات سريانية الى العربية ولم  
يكن يونانيا . وقد ورد بلفظ ماسرجويه في كتاب الحيوان للجاحظ ، ٤ : ١٩٢  
و ٣ : ٢٧٥ و ٢٢٣ .
- (٤) الجاحظ ، كتاب التربيح والتدوير ، تحقيق شارل بلا ص ٩٨ - ١٠٠ والنص نفسه  
في "رسالة التربيح والتدوير" ، رسائل الجاحظ ، ( تحقيق حسن السندوي ) ،  
ص ٢٣٦ - ٢٣٨ .
- (٥) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ١ : ٩٠ .
- (٦) المصدر نفسه ، ١ : ٧٨ .
- (٧) راجع : فكتور شلحت اليسوعي ، النزعة الكلامية في اسلوب الجاحظ ، ( القاهرة ،  
دار المعارف ، ١٩٦٤ ) ص ٩١ - ٩٨ و ١٢٤ . حيث يظهر الاتجاه السوفسطائي  
والاتجاه الارسطي وانظر دراسة يوسف فان اس التي يظهر فيها ان آثار الجاحظ  
من اوائل المحاولات الكلامية التي تحاكي المنطق اليوناني :

Josef van Ess, "The logical structure of Islamic Theology," s.v.  
Logic in Classical Islamic Culture, edited by G.E. Von Grunebaum  
(Wiesbaden: Otto Harrassowitz, 1970), pp. 25, 26, 29, 32.

والجاحظ وان عدّ اليونان من الامم البائدة فقد ساواها بالامم المعتبرة حينئذ  
اشاد بفضيلة الحنين الى الاوطان لديها لما تعكسه هذه الفضيلة من طيب عنصر  
ونفاة جوهر. قال :

"... وقال بعض الفلاسفة : فطرة الرجل معجونة بحب الوطن . ولذلك  
قال بقراط : يداوى كل عليل بعقاقير ارضه ، فان الطبيعة تتطلسع  
لهوائها ، وتنزع الى غذائها . وقال افلاطون : غذاء الطبيعة من انجع  
ادويتها . وقال جالينوس : يتروح العليل بنسيم ارضه كما تنبت الحبة  
ببيل القطر...". (١)

---

(١) "رسالة في الحنين الى الاوطان" ، رسائل الجاحظ ، ج ٢ : ٣٨٧ و٤٠٧ . وهذا  
الرأى لا يناقض قول الجاحظ في كتاب الحيوان الذى ينتقد فيه الجماعات التى  
لا تغادر مساكنها الوئبة ذات التربة والماء والهواء الفاسد . انظر كتاب الحيوان  
٤ : ٧٠ - ٧٢ .

لا يجد الدارس مأخذا للمحافظ على اليونان الا كونهم يعبدون البروج والكواكب وديانتهم بالدهرية . وقد ذكر الجاحظ ذلك في معرض كلامه عن اشتراك اليونان في "دا" المنشأ والتقليد" الذي لم تسلم منه الامم المعتبرة المعاصرة للمحافظ او البائدة ، تحقيقا لمفهومه في تفاوت حال هذه الامم في الدنيا والدين (١) قال :

" . . . فقد علمنا جميعا ان عقول اليونانية فوق الديانة بالدهرية والاستبصار في عبادة البروج والكواكب ، وعقول الهند فوق الديانة بطاعة البد ، وعبادة البُددة . . . فدأ" المنشأ والتقليد ، دأ" لا يحسن علاجه جالينوس ولا غيره من الاطباء . وتعظيم الكبرا" وتقليد الاسلاف والفريسيين الآباء والانس بما لا يعرفون غيره ، يحتاج الى علاج شديد والكلام في هذا يطول . . . . (٢)

ومن يدرس اقوال الجاحظ في الدهرية يلحظ انه لم يقصد دعاة هذا المذهب من المتكلمين المعاصرين له فحسب وانما قصد ايضا اصحاب هذا المذهب من مفكرى اليونان الذين كانوا يقولون بقدوم العالم ويقدمون النفع واللذة على سائر الغايات ويجعلون للفلك ما ليس له . قال :

" . . . والدهرى الذى ينفي الربوبية . . . وينكر جواز الرسالة ، ويجعل الطينة قديمة ، ويجحد الثواب والعقاب ، ولا يعرف الحلال والحرام . . . ويجعل الفلك الذى لا يعرف نفسه من غيره ، ولا يفصل بين الحديث والقديم . . . ولا يستطيع الزيادة في حركته ، ولا النقصان من دورانه . . . ولا الوقوف طرفة عين ولا الانحراف عن الجهة ، هو (٣) الذى يكون به

- 
- (١) لان هذه الامم لا تُخضع دينها للمقاييس العقلية المتحررة من التقليد .  
(٢) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٥ : ٣٢٦ - ٣٢٨ . وقد اشار الجاحظ الى عبادة اليونان قوة الهبولى وعبادتهم النجوم ايضا في كتاب التربييع والتدوير ، تحقيق شارل بلا ، الفقرة ١٣٤ ، ص ٧٦ .  
(٣) " هو" اى الفلك الذى تقدم ذكره .

جميع الابرام والنقض ودقيق الامور وجليلها . . . لان الدهرى ليس يرى ان في الارض دينا او نحلة او شريعة او ملّة . . . انما الصواب عنده . . . انه والبهيمة سيان . . . ليس القبيح عنده الا ما خالف هواه وليس الحسن عنده الا ما وافق هواه . وان مدار الامر على الاخفياق والدرك وعلى اللذة والالم ، وانما الصواب فيما نال من النفعة ، وان قتل الف انسان صالح لسالة درهم ردى . . . (١)

باختصار ، فان الدهرى عند الجاحظ هو الذى " لا يقر الا بما اوجده العيان ، وما يجرى مجرى العيان ، ويستنكر احياء الموتى " (٢) ، ولا يقول بالتوحيد ولا يعترف الا الفلك وعطه ويرى ان ارسال الرسل يستحيل (٣) . وقد اورد الجاحظ مقولة استاذة النّظام في الرد على مقولة الدهرية في اركان العالم التي لم تجعل الروح ركنا في تكوين الاشياء (٤) ، كما اورد تعجبه من قول اليونان بالهيوولى وعبادتهم لها . (٥) ويلاحظ الدارس ان الجاحظ قد ساوى بين الروم واليونان في مقولتهم بالدهرية ولا يستطيع المرء الجزم ما اذا كان الروم ، الذين افسدوا الفكر اليوناني الذى ورثوه ، هم مصدر القول بالدهرية ام ان اليونان كانوا سببه . (٦)

---

(١) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٧ : ١٢ - ١٣ . ومذهب اللذة او النفع هو ما دعا اليه الفيلسوف اليوناني ابيقور . انظر :

*Encyclopaedia of Philosophy*, (New York: Macmillan Publishing Co. 1967), s.v. "Epicurus," by P.H. Delacy.

(٢) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٤ : ٩٠ .

(٣) المصدر نفسه ، ٦ : ٢٦٩ وقد انتقد الجاحظ مقولة الدهرية التي تطعن في ملك سليمان وملكة سبا انظر كتاب الحيوان ، ٤ : ٨٥ . كما اخذ عليهم نظرتهم في تأويل المعجزات تأويلا طبيعيا ، كجعلهم الخسف كالزلازل . انظر كتاب الحيوان ، ٤ : ٧٠ - ٧٣ . وفي ذلك تأكيد لما اشرنا اليه مسبقا ان المقصود بالدهرية هنا ، معاصرون للجاحظ ايضا من المتأثرين بالفكر اليوناني .

(٤) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٥ : ٤٠ - ٤٧ .

(٥) المصدر نفسه ، ٥ : ٥٠ . وكتاب التريبع والتدوير ، تحقيق بلا ، فقرة ١٣٤ ص ٧٦ .

(٦) راجع " كتاب الرد على النصارى " ، رسائل الجاحظ ، ج ٣ : ٣١٥ . ولكن ليس ما يمنع ان يكون بين الروم ، من قال بالدهرية التي تنفي الربوبية .

الباب الثاني

=====

آراء الجاحظ في الاسم غير المعتبرة

=====

## الفصل الاول : آراء الجاحظ في الصقالبة

تعد آراء الجاحظ في الصقالبة كما في اصناف السودان ، تطبيقا لمقولة استاذہ النظام في الاثر الحثي للاقليم على الخلق والخلق . ولكن الفرق في معالجة الجاحظ للسودان والصقالبة ان السودان حظيت بفضل لم يتوافر للصقالبة وهو وجود من يدافع عن مناقبهم وانجازاتهم من حيث هم امة مهضومة الحقوق . ويجب ان تفهم المناقب القليلة التي ينسبها الجاحظ الى الصقالبة في ضوء هذا السياق الذي لا يرقى بها الى مصاف الامم المعتبرة ولا الى مرتبة الامم التي تطالب بحقوقها كالسودان وان صدر عن الجاحظ ما قد يفيد الاحتمال الاخير كما سنرى ادناه .

### مناقب الصقالبة :

وسمع ان الجاحظ عد الخصاء مثلة وقسوة (١) ، فان آراءه في الصقالبة المخصيين عرضها بصيغة الاقرار بواقع لا يمكن تجاهله ، وان كان لا يستسيغه . واولى هذه المناقب هي ان الصقالبة المخصيين مع خروجهم من شطر طبائع الرجال الى طبائع النساء ، لا يعرض لهم التخنيث . . . ورأيت ذلك في الزنج الاقحاح . (٢) فهذه ميزة سجلها الجاحظ للصقالبة على السودان . ومن مناقبهم ايضا ان شجاعة كل صقلبي في الرماية تفي بمضرة قائد ضخم (٣) من قادة الروم الذين كانوا سبب خصائهم (٤) . قال الجاحظ :

- 
- (١) راجع الجاحظ : كتاب الحيوان ١٠ : ١٢٤ حيث قال : " وحسبك بالخصاء مثلثة وحسبك بصنيع الخاصي قسوة " .
  - (٢) الجاحظ ، كتاب الحيوان ١٠ : ١٣٦ اى رأى الجاحظ ظاهرة التخنيث في الزنج .
  - (٣) المصدر نفسه ١٠ : ١٢٥ .
  - (٤) قال الجاحظ : وكل خصاء في الدنيا فانما اصله من الروم . المصدر نفسه ١٠ : ١٢٤ .

"... وهذا يدل على مقدار فرط الرغبة في النساء ، وعلى شهوة شديدة للمباذعة ، وعلى انهم قد عرفوا مقدار ما فقدوا وهذه خصلة كريهة ، مع طلب الشهوة ، وحسن الاحدوثة ." (١)

ومن مناقب الصقالبة ايضا ان زكا الصقلبي المخصي يفوق زكا السودانى المخصي . بعبارة اخرى ، فان الخصاء يعطي الصقالبة كما ينقص السودان . قال الجاحظ :

" فاما الخصيان من الحبشان والنوبة واصناف السودان ، فان الخصاء يأخذ منهم ولا يعطيهم ، وينقصهم ولا يزيدهم ، ويحفظهم عن مقادير اخوانهم ، كما يزيد الصقالبة عن مقادير اخوتهم . . . ." (٢)

والى جانب كون زكا الصقلبي المخصي يفوق زكا المخصي من السودان فان الجاحظ يلاحظ ان الصقلبي المخصي يفوق الصقلبي غير المخصي فيقول :

" ويعرض له ان اخوين صقلبيين من ام واب ، لو كان احدهما توأم اخيه ، انه متى خصي احدهما خرج المخصي منها اجود خدمة ، وافطن لاسباب المعاطاة والمناولة ، وهولها اتقن وبها أليق ، وتجده ايضا اذكى عقلا عند المخاطبة ، فيُخَصُّ بذلك كله ، ويبقى اخوه على غثارة فطرته ، وعلى غباوة غريزته ، وعلى بلاهة الصقلبية وعلى سوء فهم العجمية . . . فأول ما صنع الخصاء بالصقلبي ، تركية عقله ، وارهاف حده ، وشحد طبعه ، وتحريك نفسه فلما عرف كانت حركته تابعة لمعرفته ، وقوته على قدر ما هيجه . فاما نساء الصقالبة وصبيانهم ، فليس الى تحويل طبائعهم ، ونقل خلقهم الى الفطنة الثاقبة ، والى الحركة الموزونة ، والى الخدمة الثابتة الواقعة بالسوافقة ، سبيل . . . ." (٣)

(١) المصدر نفسه ، ١ : ١٢٥ .

(٢) المصدر نفسه ، ١ : ١١٩ .

(٣) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ١ : ١١٦-١١٧ ولكن الجاحظ ما لبث ان حد من محاسن الصقالبة المخصيين حين نص على انه لا يوجد بينهم " من نفذ في صناعة تنسب الى بعض الشقة وتضاف الى شي " من الحكمة ، مما يعرف ببعد الروية والغسوس بادامة الفكرة الا ما ذكروا من نفاذ ثق في التحريك للاوتار وصناعة الدبوق ودعا الحمام الطوري وما شئت من صفار الصناعات " المصدر نفسه ، ص ١١٧-١١٨ .



وكان الجاحظ من خلال هذا النص ، وان اعطى حق الصقالبة من الفضل ، فهو في اقواله هذه لم يستطع ان يتجاوز ما سيذكره في مثالبهم وهواثر الاقليم على عقولهم كما سئرى في حينه . وحين حاول ان يتجاوز ذلك لم يفلح في تعليل بعض مناقبهم الا باقرار علة الخصاء المستحدثة فيهم (١) ، ولعل المحاولة الوحيدة التي انصفتهم كانت بلسان اصناف السودان في رسالة فخرهم على البيضان حين قالوا ان افراط البياض ، كافراط السواد ، ردة فعل طبيعية ازاء عامل جغرافي قاهر لا تدل على نقص عقل ولا سوء فهم (٢).

---

(١) مع ما استدعته هذه العلة من اقوال غير مبررة في العجم ، الا ان يكون مبعثها تصور الجاحظ انهم مصدر علة الخصاء كما تقدم .

(٢) الجاحظ ، " كتاب فخر السودان على البيضان " ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٢٢٥ .

يستطيع الدارس ان يقول ان جميع مثالب الصقلية حقائق جزئية لسقولة النظام في اثر حتمية الاقليم ذى الحرارة الضعيفة والطبيعة الفاسدة على الخلق والخلق ، فالصقلية هي الامة التي لم تنضجها الارحام . قال الجاحظ :

" وكان يقول : ان الامة التي لم تنضجها الارحام ، ويخالفون في السوان ابدانهم ، واحداق عيونهم ، والوان شعورهم ، سبيل الاعتدال - لا تكون عقولهم وقراءتهم الا على حسب ذلك . وعلى حسب ذلك تكون اخلاقهم وآدابهم ، وشمالهم ، وتصرف همهم في لوهمهم وكرمهم ، لا اختلاف السبك وطبقات الطبخ . وتفاوت ما بين الفطير (1) والخمير ، والمقصر والساجوز - وموضع العقل عضو من الاعضاء ، وجزء من تلك الاجزاء - كالتفاوت الذى بين الصقلية والزنج . وكذلك القول في الصور ومواضع الاعضاء . . . . (2) "

كما قال الجاحظ مدعما رأى النظام بحثى بن زهير الذى قسم الناس تقسيما لونيا ونسب الى كل لون حظا من العقل :

" . . . فاذا ابيض الحمام كالفقيح فمثله من الناس الصقلابي ، فسأن الصقلابي فطير خام لم تنضجها الارحام ، اذ كانت الارحام في البلاد التي شمسها ضعيفة . . . وكما ان عقول سودان الناس وحرانهم دون عقول السم ، كذلك بيض الحمام وسودها دون الخضر في السمرة والهداية . (3) "

- 
- (1) الفطير ما يختبز من ساعته دون ان يختم وينضج . والخمير ما ترك حتى نضج واختم . والفطير هو الصقلبي . قال الجاحظ في كتاب البرصان والعرجان : "يقول المتطهون وناس من المتفلسفين : الصقلبي من لم تنضجها الارحام فهو فطير . انظر البرصان والعرجان ، ص ٤٤ .
- (2) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٥ : ٣٥ - ٣٦ .
- (3) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٣ : ٢٤٥ .

وقد اعتمد الجاحظ مقولة للدهرية لتأكيد واقع الصقالبة المتخلف ، حين ذكر ان اجيال الصقالبة تمثل الولادة المتوقعة للتفاعل المستمر والمتشبه بطبيعة الماء والهواء والترية الفاسدة . قال الجاحظ :

" وقال الصنف الاخر (١) : لاننكر ان يفسد الهواء في ناحية من النواحي فيفسد ماؤهم وتفسد تربتهم ، فيعمل ذلك في طباعهم على الايام كما عمل في طباع الزنج وطباع الصقالبة وطباع بلاد يأجوج ومأجوج . . . (٢)

وقد شبه الجاحظ الصقالبة ، حين تحدث عن الحمر (٣) بصورة القسورود (٤) اما فيما يتعلق بالصقالبة والامم ، فقد قال الجاحظ ان الصقالبة يعترضهم من كسي البلاء ما لا يعترى السودان (٥) وان الصقالبة ابخل من الروم واقل ذكاء منهم اى انهم يجمعون الغبا والبخل معا (٦) وكما اشرنا سابقا ، فان " غثارة فطرة الصقلي وغباوة غريزته وبلاهته " (٧) هي سمات مصاحبة للأفراد غير المخصيين من الصقالبة حسب رأى الجاحظ .

- 
- (١) من اصناف الدهرية كما يفهم من سياق الكلام . المصدر نفسه ، ٤ ، : ٧٠ .
  - (٢) المصدر نفسه .
  - (٣) المصدر نفسه ، ٤ ، : ٩٨ ، وانظر ايضا : ص ٧٢ . والمقصود بالحمر الروس . انظر : السعوى ، التنبيه والاشراف ، ص ١٢٢ ولكن المحقق طه العاجرى فهم ان المقصود بالحمر ، الصقالبة . راجع الجاحظ ، البخلاء ، ٢٠٧ .
  - (٤) المصدر نفسه ، ٤ ، : ٩٨ .
  - (٥) الجاحظ ، كتاب البرصان والعرجان والعميان والحولان ، ص ٣٩ .
  - (٦) الجاحظ ، البخلاء ، ١٤٧ ، و" كتاب فخر السودان على البيضان " ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ١٩٦ .
  - (٧) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ١ : ١١٦-١١٧ .

نعرض في هذا القسم آراء الجاحظ في مناقب السودان ومثالبهم ثم نعرض آراء السودان في انفسهم .

مناقب السودان :

عدّ الجاحظ من اصناف السودان الامم التالية : الزنج (١) والحباشان والنوبة (٢) والسند (٣) والهند (٤) في حين روى عن السودان انهم يضمن اليهم العرب والصين والقبط والبربر والزايج . ومع ان الجاحظ جعل الهند من السودان غير انه عد الهند من الامم المعتبرة . وقد عرضنا مناقبها ومثالبها في بحثنا حول الهند . ولذلك فسنقتصر على الكلام في اولئك السودان الذين لم يعددهم الجاحظ من الامم المعتبرة ونبدأ بالزنج .

من مناقب الزنج طيب افواهها (٥) وطول خطبها (٦) وسهولة لغتها وخفتها (٧) وشدة بطشها (٨) وقد اشار باستعمالها العصي مثلما تفعل العرب في حروبها . وقد قال الجاحظ ان الزنج قبيلتان وهما آيتان في العدر والصبر قال :

- 
- (١) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٣ : ٢٤٥ .
  - (٢) المصدر نفسه ، ١ : ١١٣ و ١١٩ .
  - (٣) المصدر نفسه ، ١ : ١١٣ .
  - (٤) الجاحظ ، " كتاب البغال " ، رسائل الجاحظ ، ج ٢ : ٣٥٥ .
  - (٥) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٢ : ١٥٤ .
  - (٦) المصدر نفسه ، ٧ : ٢٠٥ .
  - (٧) المصدر نفسه ، ٥ : ٢٨٩ .
  - (٨) المصدر نفسه ، ٢ : ٧٩ .

"... والزنج نوعان : احدهما يفخر بالعدد ، وهم يسمون النمل ،  
والآخر يفخر بالصبر وعظم الابدان ، وهم يسمون الكلاب . واحدهما  
" يكيو " والاخر " ينبو " . فالكلاب " تكبو " والنمل " تنبو " . (١)

ومن مناقبهم التي ذكرها الجاحظ السخاء حين قال " ان الله فضلهم بالجود " (٢) .  
اما الحيشان والنوبة فقد ذكرهما الجاحظ معا ومن مناقبهما ما ذكره من فضل طمسك  
الحبشة النجاشي على ايلاف قريش ، (٣) فضلا عن تكريمها الغيلة وتربيتها الخيسل ، (٤)  
وتداويهما بفرس الهاء من وجع الطحال (٥) . اما امة السند فمن مناقبها استعدادها  
الجيد لتقبل الفصاحة العربية (٦) واتقانها شؤن الصيرفة (٧) وحسن اصواتها (٨) ومهارتها  
في الطبخ وفي شؤن الصيدلة (٩) .

- 
- (١) قال المحقق عبدالسلام هارون انه وجد اضطرابا في رسم هاتين الكلمتين . فمرة  
بدئا بالياء ومرة بدئا بالتاء . واقترح ان تكون اللفظتان من الفاظ الزنج . قال :  
" فقول الجاحظ فالكلاب تكبو لعل معناه تسمى تكبو بالزنجية . " وفي لسان  
العرب ما يشير الى الاقتراح المذكور بان يكون اللفظان اسي علم وليس  
فعلين . ولكن ابن منظور اورد معنى ايجابيا لفعل كبا ونبا ، وهو الارتفاع  
والعظمة ، مما يطرح مجددا احتمال استعمالها بصيغة الفعل . انظر الجاحظ ،  
كتاب الحيوان ، ٤ : ٣٥ ، ولسان العرب لابن منظور ، مادة كبا .
- (٢) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٧ : ٢٠٥ اما في البيخلاء : ١٤٧ فقد ربط  
جودهم بقلّة تدبيرهم للعواقب .
- (٣) الجاحظ ، " كتاب في الاوطان والبلدان " ، رسائل الجاحظ ، ج ٤ : ١٢٧ .
- (٤) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٣ : ٤٣٥ و ٧ : ١٠١ .
- (٥) المصدر نفسه ، ٧ : ١٣٨ و ٢٥١ .
- (٦) المصدر نفسه ، ٣ : ٤٣٤ .
- (٧) المصدر نفسه .
- (٨) المصدر نفسه ، ٣ : ٤٣٥ .
- (٩) المصدر نفسه .

اما مثالب الزنج التي ذكرها الجاحظ فهي مأخوذة من علماء الدهرية (١) ومن مشى بن زهير المعروف بصاحب الحمام (٢) ومن النظم (٣) . فعلماء الدهرية يقولون ان الزنج تقاعست عن ترك البيئة الفاسدة التي تحيط بها حتى صارت صورها تناسب القرود . (٤) اما مشى بن زهير فقد نسب الجاحظ اليه تشبيهه الزنج بالامة التي تعرضت الى عطية شديدة من الطبخ الحرارى ومثلها في عالم الحيوان الحمام الاسود المحترق والغريان الحالكة السواد ، ما يعكس الاثر السلبي لحسرة الشمس الشديدة على الخلق والخلق التي جعلت عقول السودان وحرانهم دون عقول السمير .

وقد روى الجاحظ على لسان ابن زهير قوله ان الزنج شر الناس (٥) . كما نقل عنه رأيه الذي يقرن السواد لدى الناس والحيوان بقلّة المعرفة وسوء الهداية . (٦)

- 
- (١) الجاحظ ، كتاب الحيوان ٤ : ٧٠ .  
(٢) المصدر نفسه ، ٢ : ٧٩ وقد نقل عنه الجاحظ كثيرا ما يختص بالحمام .  
(٣) المصدر نفسه ، ٥ : ٣٥ .  
(٤) المصدر نفسه ، ٤ : ٧٠ و٧٢ وقد قال علماء الدهرية : " وقال الصنف الآخر : لاننكر ان يفسد الهواء في ناحية من النواحي فيفسد ماؤهم وتفسد تربتهم فيعسل ذلك في طباعهم على الايام كما عمل في طباع الزنج وطباع الصقالبة وطباع يأجوج ومأجوج وقد رأينا العرب وكانوا اعرابا حين نزلوا خراسان كيف انسلخوا من جميع تلك المعاني ."  
(٥) قال : " وان اسود الحمام فانما ذلك احتراق ، ومجاورة لحد النضج ومثل سود الحمام من الناس الزنج فان ارحامهم جاوزت حد الانضاج الى الاحراق وشيطت الشمس شعورهم فتقيضت . والشعر اذا ادنيه من النار تجعد فان زده تغفل ، فان زده احترق . وكما ان عقول سودان الناس وحرانهم دون عقول السمير كذلك بيض الحمام وسودها دون الخضر في المعرفة والهداية . والغراب يكون مع ذلك حالك السواد شديد الاحتراق ويكون مثله من الناس الزنج فانهم شرار الناس وارداً الخلق تركيباً ومزاجاً ، كمن بردت بلاده فلم تطبخه الارحام ، او سخنت فاحرقت الارحام . " انظر الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٣ : ٢٤٥ و ٢ : ٣١٤ .  
(٦) قال صاحب الحمام : وكل شيء من الحيوان اذا اسود شعره او جلده اوصوفه (=

اما النظام فقد وافق مشى بن زهير فيما قال حول الاثر السلبي لحرارة الشمس على خلق السودان وخلقهم (١) .

وذكر الجاحظ مثالب اخرى للسودان . فمن مثالب الحبشة والنوبة في رأيه محاولة ملك الحبشة ابرهة في الجاهلية غزو الكعبة . (٢) ومن مثالبها ايضا عجزهما عن بلوغ المستويات الحضارية التي بلغتها سائر الامم المعتمدة وهو في ذلك ينتقد الشاعر حكيم بن عياش الكلبى \* (٣) عندما وضع الحبشة ضمن الامم المعتمدة في قوله :

ألم يك ملك ارض الله طرا      لاربعة له متميزينا  
لحمير والنجاشي وابن كسرى      وقيصر غير قول المتمرنا (٤)

فيرد عليه الجاحظ بقوله :

"... فما ادري باى سبب وضع الحبشة بهذا المكان . . . واما النجاشي فليس هو عند الملوك في هذا المكان ، ولو كان النجاشي في نفسه فسوق

---

(=) كان اقوى ليدنه ولم تكن معرفته بالمحمودة . وزعم ان الحمام الهدأ<sup>١</sup> انما هو فسي الخضر والنمر ، فاذا اسود الحمام حتى يدخل في الاحتراق صار مثل الزنجي الشديد البطش ، القليل المعرفة . والاسود لا يجي<sup>٢</sup> من البعد لسوء هدايته والابيض وما ضرب فيه البياض لا يجي<sup>٣</sup> من الغاية ، لضعف قواه . " انظر الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٢ : ٧٩ .

(١) وقد سبقت الاشارة الى قول النظام في حديثنا عن الصقالبة ص ١٠٩ . وانظر كتاب الحيوان ٥ : ٣٥ واما الفارق بين النظام وصاحب الحمام فيمكن في توضيح عناصر التشبيه المعنوية بعملية الطبخ ؛ فامة الزنج هي كالبخز المحترق اى العجين الذى زاد في الاختار وامة الصقالبة هي كالفطير الذى لم يخبز درجة كافية .

(٢) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٧ : ١٩٩ و ٢١١ .

(٣) حكيم بن عياش المعروف بالاعور الكلبى . شاعر انقطع الى بني امية بدمشق كان يتعصب لليمن على مضر . وروى الجاحظ عنه ان الزنج والنوبة اكرم من بني اسد وذلك في " كتاب فخر السودان ، رسائل الجاحظ ، ١ : ١٩٩ فيكون ذكر هذا الشاعر للحبشان ضمن الامم المعتمدة سببا شعوبيا وليس ايمانا بضرورة رد الاعتبار الى امة الحبش وبالتالي السودان كما هو الهدف العام من " كتاب فخر السودان " .

(٤) الجاحظ ، البيان والتبيين ١٥ : ٣٨٤ .

تبع وكسرى وقيصر لما كان اهل ملكته من العيش في هذا الموضع .  
وهو لم يفضل النجاشي لسكان اسلامه ، يدل على ذلك تفضيله لكسرى  
وقيصر . وكان وضع كلامه على ذكر السالك ثم ترك السالك واخذ في ذكر  
السلوك ..... (١)

ومن المثالب التي ذكرها الجاحظ في العيشة والنوبة ان الخصا يفعل بهم  
ما لا يفعله بغيرهم قال :

" فاما الخصيان من الحبشان والنوبة واصناف السودان فان الخصا يأخذ  
منهم ولا يعطيهم ، وينقصهم ولا يزيدهم ، ويحط بهم عن مقادير اخوانهم ،  
كما يزيد الصقالبة عن مقادير اخوتهم ..... (٢)

ومن مثالب السودان التي ذكرها الجاحظ ما يصيبهم من جزع وبخاصة النوبة  
منهم (٣) . واما مثالب السند فهي المثالب التي تصيب غيرهم من السودان حين  
يخصون . ويزيد الجاحظ عليها عدم معرفة اهل السند بتربية الخيل ان هم قورنوا بصبيان  
العيشة والنوبة . كما اخذ الجاحظ على رجال السند عدم نجاحهم في تعهد البيوت  
بالمقارنة برجال الروم (٤) . وقد عد الجاحظ السند من الامم الذليلة لان ظهور  
الكبر فيهم ارسخ واعم من ظهوره في الاجناس المعتبرة كالروم والفرس . (٥)

- 
- (١) الجاحظ ، المصدر نفسه .
  - (٢) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ١ : ١١٩ .
  - (٣) المصدر نفسه ، ٣ : ٤٣٣ .
  - (٤) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٣ : ٤٣٥ .
  - (٥) الجاحظ ، رسالة في النهل والتنبل ودم الكبر ، رسائل الجاحظ ، ج ٤ : ١٨٢ ،  
وكتاب الحيوان ، ٦ : ٧١ . وتجدد الاشارة الى سبب اغفالننا رأى الجاحظ فسي  
مثالب القبط في هذا البحث لان الجاحظ نفسه لم يعددهم من السودان ولم ينص  
انهم كذلك باستثناء ما سيرد من تأكيد انهم من السودان في كتاب فخر السودان  
على البيضان . ولكن استكمالا لعرض آراء الجاحظ في الامم نشير الى ان الجاحظ  
رأى ان القبط يتسمون بالغي ونقص الاحلام بالمقارنة مع رجحان عقول قريش  
والعرب . انظر البيان ٣ : ٢٩٥ ورسالة في حجج النبوة ، رسائل الجاحظ ، ج ٣ :
- ٢٧٠ - ٢٧٢ .



## آراء السودان في انفسهم

غير ان الجاحظ الى جانب ذكره مثالب السودان ومناقبهم ، يعرض علينا ما يقوله السودان في انفسهم وذلك في رسالة فخر السودان على البيضان . وهو يُلخص ما يقولونه في انفسهم بثلاث نقاط : اولا ان العرب والصين والهند من السودان فضلا عن القبط والبربر والزابع وغيرهم ولذلك فمن حقهم المفاخرة بالانجازات الحضارية المقررة لهذه الامم . قال :

" قالوا : وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " بعثت الى الاحمر والاسود . " وقد علمت انه لا يقال للزنج والحبشة والنوبة بيض ولا احمر ، وليس لهم اسم الا السود . فاذا قال بعثت الى الاحمر والاسود ، ولسنا عنده حمر ولا بيض فقد بعث الينا ، فانما عنانا بقوله " الاسود " . ولا يخرج الناس من هذين الاسمين ، فان كانت العرب من الاحمر ، فقد دخلت في عداد الروم والصقالبة ، وفارس وخراسان . وان كانت من السود ، فقد اشتق لها هذا الاسم من اسمنا . . . . . ومن العرب لان البيضان لقب ألوانهم من ألواننا ، والهند اسفر ألوانا من العرب ، وهم من السودان . . . . . قالوا : وانتسم ترون كثرة العدد مجدا ، ونحن اكثر الناس عددا وولدا . . . . . ونحن صنغان : النمل والكلاب (١) ولو عدلتم بالنمل العرب كلها لاريت عليها . فكيف اذا قرنت اليها الكلاب ؟ ثم كيف اذا ضمت اليها الحبشة والنوبة وقرآن (٢) ومرو وزغاوة (٣) وغير ذلك من انواع السودان ؟ . . . . . وانتم لم تروا الزنج الذين هم الزنج قط ، وانما رأيت السبي يجي من سواحل قنبلية (٤)

(١) انظر كتاب الحيوان ، ٤ : ٣٥ و البيان ، ٣ : ٥١

(٢) فزان احدى مقاطعات ليبيا الثلاث واهلها يتكلمون العربية ولغة البربر وهم على المذهب المالكي . كان عقبة بن نافع قد فتح هذه المقاطعة عام ٤٦ هـ / ٦٦٦ م واصبحت مركزا لتجارة الرقيق . انظر :

Encyclopaedia of Islam, new ed., s.v. "Fazzan" by J. Despois.

(٣) زغاوة من امم السودان . انظر المسعودي ، التنبية والاشراف ، ص ١٩١ وانظر ايضا : Encyclopaedia of Islam, old ed., s.v. "Sūdān" by Maurice Delafosse.

(٤) قال الجاحظ ان الزنج ضربان : قنبلية ولنجوية . انظر البيان والتبيين ، ٣ : ٥١ .

وغياضها واوديتها من مهنتنا وسفلتنا وعبيدنا ، وليس لاهل قنبلة جمال ولا عقول . . . ومتى رأيتم من سبي السند والهند قوما لهم عقول وعلوم وأدب واخلاق حتى تطلبوا ذلك فيما سقط اليكم من الزنج ؟ وقد تعلمون ما في الهند من الحساب وعلم النجوم واسرار الطب والخسرت والنجر والتصاوير والصناعات الكثيرة العجيبة ، فكيف لم يتفق لكم مع كثرة ما سببتم منهم واحد على هذه الصفة ، او بعشر هذه الصفة ؟ وقالوا : السودان اكثر من البيضان . . . والسودان يعدون الزنج والحبشة وفزان وبربر (١) والقبط والنوبة وزغاوة ومرو والسند والهند والقمار (٢) والديبلا (٣) والصين وما صين . . . جزائر البحر ما بين الصين والزنج (٤) ملوثة سودانا كسرنديب وكله وامل وزابج . . . فتأملوا قولنا واحتجاجنا ، فانا قد روينا الاخبار وقلنا الاشعار ، وعرفناكم وعرفنا الامم . (٥)

---

(١) البربر او سكان المغرب قوم دخلوا في الاسلام بداية القرن الميلادي الثامن

(الهجري الثاني) وكانوا اصحاب ميول خارجية ابتداءً من ١٢٢ هـ / ٧٤٠ م من قبائلهم : زواغة التي ساعدت ادريس الاول في تأسيس مملكة فاس . راجع :

Encyclopaedia of Islam, new ed., s.v. "Barbers," by G. Yyer.

(٢) القمار يفتح القاف وكسرهما موضع في الهند ينسب اليه العمود القماري .

(٣) الديبلا مذكورة في معجم البلدان لياقوت "ديبل" يفتح الدال وضم الباء وهسي مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند .

(٤) لعل الاصح ان تكون الزابج ، وهي جزيرة في الصين تعرف بسومطرة . انظر :

Encyclopaedia of Islam, old ed., s.v. "Zābag," by Gabriel Ferrand.

وقد اشار الجاحظ الى هذه الجزيرة في كتاب التربيع والتدوير (تحقيق بلا )

فقرة ٦٤ ص ٣٧ . كما نقل المستشرق المذكور قول ابن خرداذبة عنها وهو ان

ملكا كان يدعى اسحق بن عمران ( ت ٩٠٧ م ) كان يحكمها ويحكم "كله" وان

جزيرة زابج كانت مشهورة بالكافور .

(٥) الجاحظ ، "كتاب فخر السودان" ، رسائل الجاحظ ، ١ : ٢١٠ - ٢١٣ ، ٢١٥ -

اي ان على الام ان لاتستدل على مستوى السودان من خلال السببي الذي يصلها منهم ، وانما من خلال الانجازات الحضارية السلم بها للصين والهند والعرب والزابع والقيط. وما دامت العرب من السودان فمن مناقبهم ايضا نصرة الاسلام<sup>(١)</sup>، وما ان الهند منهم فان من مناقبهم معرفة الفلسفة والنظر والثقافة والصبر وعلم الفكر<sup>(٢)</sup>، وهي خصائص امة الهند . وما دامت الزابع منهم ، فمن حقهم الافتخار بكثرتهم وقوتهم<sup>(٣)</sup>، وما ان القبط<sup>(٤)</sup> منهم، فان من حقهم الاعتداد بكون النبي قسد رغب في مآهرتهم<sup>(٥)</sup>، فضلا عن كون ايلاف قریش معتمدا على العلاقات الطيبة مع المقوقس<sup>(٦)</sup> عظيم القبط وصاحب الاسكندرية . وما ان السند من السودان فمن حقهم الاعتداد بفضائل السند كالفصاحة<sup>(٧)</sup>، واتقانهم شوق الصيرفة<sup>(٨)</sup>، والمعرفة بالعقائير

- 
- (١) الجاحظ ، " كتاب فخر السودان على البيضان " ، رسائل الجاحظ ، ١ : ١٩٢ - ٢٠٢ .
- (٢) المصدر نفسه ، ٢١٩ .
- (٣) المصدر نفسه ، ٢١٨ حيث يذكر ان اهل الزابع اكثر من شطراهل الارض .
- (٤) القبط هو اللفظ العربي لنصارى مصر وكان اليونان يقصدون بهم سكان مصر والنيل؛ وحسب مصادر سامية فان اللفظ يرجع الى حفيد للنبي نوح استقر في وادي النيل. واما دار القبط فيقصد العرب بها الذرية النصرانية لقدماء المصريين وقد اوصى النبي محمد بهم خيرا . راجع :
- Encyclopaedia of Islam, new ed., s.v. "Kibṭ," by A.S. 'Atiya.
- (٥) الجاحظ ، " كتاب فخر السودان على البيضان " ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٢١٨ .
- (٦) المقوقس او عظيم القبط وصاحب الاسكندرية كما يدعوه الجاحظ هو حاكم مصر الذي عينه هرقل عام ٦٣١ م . راجع مقالة القبط المذكورة آنفا في دائرة المعارف الاسلامية بالانكليزية .
- (٧) الجاحظ ، " كتاب فخر السودان " ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ١٩٨ .
- (٨) المصدر نفسه ، ٢٢٤ - ٢٢٥ .

ومهارتهم في الطهي (١) مع جودة اصواتهم (٢).

ثانيا : ليس ما يمنع ان تجمع امة السودان فضيلتي السخاء والذكاء ، ولا يجوز ربط سخائهم بقلة تصورهم للعواقب (٣) . ثالثا : ان اللون الاسود ليس عيبا فسي السودان وانما هو نتيجة للبيئة ، ففي العرب وغيرهم يظهر اللون الاسود دون ان يحط هذا اللون من قدرهم . وفي ذلك يقولون :

" . . . ونحن نقول ان الله تعالى لم يجعلنا سودا تشويها بخلقنا ، ولكن البلد فعل ذلك بنا . والحجة في ذلك ان في العرب قبائل سودا كبنو سليم بن منصور . وكل من نزل العرة من غير بني سليم كلهم سود . وانهم ليتخذون السماليك للرعي والسقاء . . . ومن الروم نساءهم ، فما يتوالدون ثلاثة ابطن (٤) حتى تنقلهم العرة الى الوان بني سليم . ولقد بلغ من امر تلك العرة ان ظباها ونعامها وهوامها . . . كلها سود . والسواد والبياض هما من قبيل خلقة البلدة ، وما طبع الله عليه الماء والترية ، من قبل قرب الشمس وبعدها ، وشدة حرها ولينها . وليس ذلك من قبيل سخ ولا عقوبة ، ولا تشويه ولا تقصير . " (٥)

وقد انتهى السودان الى التقرير ان التفاوت اللوني كافرط البياض واقراط السواد والسمة المتولدة بينهما هو كالتفاوت الملاحظ في طبيعة المخلوقات كافة ، فسي هيئاتها ونوازعها وصناعاتها وان ذلك كله ليس تشويها ولا عقابا . قالوا :

" فليس سوادنا ، معشر الزنج ، الا كسواد بني سليم ومن عددنا عليكم من قبائل العرب في صدر هذا الكلام . وما افراط سواد من اسود من الناس ، الا كافرط بياض من ابيض من الناس . وكذلك السمة المتولدة

(١) المصدر نفسه .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) المصدر نفسه : ١٩٦ .

(٤) ذكر الجاحظ هذه الفكرة في كتاب التربيع والتدوير ، ايضا . تحقيق بلا ، الفقرة ٤٨

صفحة ٣٠ - ٣١

(٥) الجاحظ ، " كتاب فخر السودان على البيضان " ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٢١٩ -

من بينهما ، وكذلك الزى والهيئات ، وكذلك الصناعات ، والمطاعم  
والشبهات. (١)

وان ما ذكره السودان من اعتداد بكثرتهم وشدة ابدانهم وجمعهم المعروفة  
الى القوة ، يهدف الى تصحيح الصورة الشائعة التي طرحها مثنى بن زهير من  
كون السواد يمثل القوة الجسدية دون قوة المعرفة (٢) .

- 
- (١) الجاحظ ، " كتاب فخر السودان " ، رسائل الجاحظ ، ٢٢٠ وقد ردد الجاحظ  
اثر البلدان وتصرف الا زمان في " كتاب الاوطان والبلدان " ، رسائل الجاحظ  
ج ٤ : ١٠٩ .
- (٢) الجاحظ ، " كتاب فخر السودان " رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٢٠٣ و ٢١٧ . وراجع  
مقولة صاحب العمام في كتاب الحيوان ، ٢ : ٧٩ و ٣١٤ و ٣ : ٢٤٥ .

### الباب الثالث

=====

الخاتمة : بيان مقاييس الجاحظ في الحكم على الامم وتحليل آرائه .

=====

## الفصل الختامي

=====

لقد استطاع الجاحظ من خلال حياته الطويلة ( ١٦٠ هـ / ٧٧٧م - ٢٥٥هـ / ٨٦٩م ) ان يحفظ لنا في كتاباته المتنوعة نظرة العرب الى انفسها من حيث هي امة اتتها محاسن الامم بعد ان اجتمع فيها " فضلا النبوة والملك " (١) دون ان ينكر مما لسائر الامم المعتبرة من فضل ومناقب ، سواء التي ساندت الخلافة العباسية والتي لم تساندها .

لم يعتمد الجاحظ مقياسا واحدا في نظرتة الى الامم المعتبرة فهو تارة يعتمد مقياسا حضاريا بمعزل عن الدين وطورا يعتمد مقياسا دينيا صرفا و احيانا يزاوج بينهما . ونجد المقياسيين متوافرين في كل من امم العرب والروم (٢) والترك وبعض اصناف السودان كلقبط (٣) . كما نجد المقياس الحضارى ضعيفا عند الصقالبة حين خصهم بسمي الرماية وخدمسة البيوت فقط . و احيانا يتوافر المقياس الحضارى بقوة ، دون المقياس الديني كما عند الهند والفرس واليونان و احيانا يضمحل المقياس الديني لدى الامم المعتبرة جمعاء حين يرى الجاحظ استواء في تهافتها في مسألة الدين لانها تشترك جميعا في عدم اعمال الفكر وفي اتباع التقليد في الدين (٤) . ونجد ايضا المقياس الحضارى يقسوى في فكر الجاحظ ، مع تجاوز واضح لمقياس الدين وذلك حين جعل الجاحظ امم الفرس والهند والروم تشارك العرب في المنزلة الحضارية وذلك بفضل ما اسهم كل منها في الحضارة الانسانية ، حتى ولو لم تمت اى منها الى الاسلام بشي . ويدخل في المقياس الحضارى طائفة كبيرة من المناقب والخصائص الايجابية كما مر معنا من اجتماع خصائص خلقية كاجتماع العقول والاخلاق والآداب والاحلام وخصائص عملية كانتظام معانسي الفروسية والحرب واتقان الصناعات وغير ذلك مسابق . ولقد اقر الجاحظ بالمناقب

- 
- (١) اللفظ للجاحظ ، انظر " رساله في النابغة " ، رسائل الجاحظ ، ج ٢ : ٢١ .  
(٢) لان الروم والقبط اهل كتاب وملة في مفهوم الجاحظ .  
(٣) راجع " كتاب الاخبار وكيف تصح " للجاحظ ، المجلة الآسيوية ، ص ٩١ - ١٠٢ .

الحضارية للامم التي لولاها " لقد خس حظنا من الحكمة ولضعف سببنا المسمى المعرفة" (١) ولذلك عدّ المستشرق فرانز روزنتال ، الجاحظ ، رائدا في طرح فكرة الحكمة الخالدة للامم التي تناقلتها الى ان وصلت العرب الذين كانوا في نظر الجاحظ آخر من ورثها (٢) . وارى ان قيمة آراء الجاحظ التي عرضتها في مسألة الامم تكن في هذا الطرح السيكر لموضوع مناقب الامم ومثالبها (٣) في دائرة النثر العربي ما يدل على ممارسة الجاحظ في سائر كتاباته ، البعد الوظيفي الاعلامي للادب وسيلة بنا وتوجيه ؛ وقد رفع ذلك الطرح بعض النارسين الى القول ان مجتمع القرن الهجرى الثالث ، التاسع الميلادى ، كان النواة التأسيسية للقرون اللاحقة حيث بلغت مواضيع كثيرة طرقها الجاحظ مرحلة النضج (٤) . فالجاحظ مثلا كان من اوائل الذين طرحوا فكرة التخصص الحضارى وغلبة طابع معين على امة من الامم ، كغلبة طابع البيان على العرب وطابع السياسة على الفرس وطابع الحكمة على اليونان والصناعات على الصين ، مع استواء الجميع في التحلي بقدر مشترك من الفضائل وذلك لاشتراكهم في معنى الانسانية الذى يقع حمدا كما يقع ذما . ولنا ملاحظة في المعاني الحبيدة التي رآها الجاحظ في الامم . فاقواله التي اطلقها في مناقبهم مع استدراكه بانها الاغلب عليهم ، وانها فيهم اعم واتم واظهر واكثر (٥) ، تحتل فيما تحتل وخاصة تلك التي تتحدث في

(١) انظر الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ١ : ٨٥ و ٧٥ - ٨٦ .

(٢) المصدر نفسه وانظر ايضا :

Franz Rosenthal, Technique & Approach of Muslim Scholarship, p.71.

(٣) فضلا عن تلقيح الجاحظ النثر العربي بمواضيع جديدة اخرى كالنقد الادبي والجغرافيا وعلم الاجتماع وعلم الحيوان .

(٤) انظر :

Charles Pellat, The Life and Works of Al-Jāhiz, University of California Press, 1969), p. 22

وانظر ايضا: محمد عبد المنعم خفاجي ، ابو عثمان الجاحظ ، ( بيروت : دار

الكتاب اللبناني ، ١٩٨٢ ) ص ١٨٨ - ١٨٩ و ٢٤٣ .

(٥) انظر الجاحظ ، رسالة " في مناقب الترك " ، رسائل الجاحظ ، ١ : ٧٣ .



خصائص الامم المستقدمة الى دار الاسلام من الجند والسوالي والعبيد ، الا تكون مثلية للمواقع الاجتماعي لاخوانهم غير المستقدمين للعمل في خدمة الخلافة العباسية . اى انه يجوز ان تكون جماعات الترك المستقدمة الى سامرا\* تمثل نسبة ضئيلة من المجتمع التركي ، كما يجوز ان يكون افراد الصقالبة والزنج الموجودين في المجتمع العباسي لا يعكسون الوجه الايجابي الحقيقي لاخوانهم في بلادهم . ومن الطبيعي ان ذلك كله كان يحتاج من الجاحظ الى اجراء دراسة دقيقة للوصول الى آراء جامعة مانعة . اما فيما يتعلق بمثالب الامم فأرى ان ابلغ ما قاله الجاحظ في هذا الخصوص كون الامة تعرف بكثرة الحسنات وقلة المساوي\* ، فاما ان تبرأ الامة المعتبرة من المثالب ، دقيقتها وجليلها ، فهذا ما لا يعرف في نظر الجاحظ (١) . ويلاحظ القارى ايضا ان الجاحظ كان ينظر الى المثالب من الزاويتين المشار اليهما آنفا ، اى الزاوية الحضارية والزاوية الدينية ، حتى نرى الخصلة عنده سيئة بمقدار بعدها عن الاسلام ، كخصلة الزندقة لدى بعض طوائف الترك ، وخصلة عبادة النجوم والكواكب والقسول بالدهرية كما لدى اليونان والروم وخصلة عبادة الاصنام كما لدى العرب والهند وخصلة عبادة النار لدى الفرس ، فضلا عن محاولة ملك الحبشة غزو مكة ، التي عدّها مثلية صبغت الامة جميعها .

واما اقوال الجاحظ في الارتباط العضوي للناس بمحيطهم الجغرافي من هوا\* وما\* وتربة ، فتعدّ ايضا من السحاولات الاولى من نوعها التي ترى الانسان ابن بيئته . وقد قدر لهذه الاقوال ان يردّها كثير من الجغرافيين من بعده (٢) . والذي يعنيننا هنا ان الجاحظ لاحظ استواء الامم في خضوعها الى العوامل الجغرافية المذكورة

---

(١) الجاحظ\* رسالة في مناقب الترك وعامة جند الخلافة\* ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٣٧ ، وانظر ص ١١ من هذه الرسالة وقارن مع التوحيدى في الامتاع ١ : ٧٣ .  
(٢) انظر :

Tarif Khālidī, "Some classical Islamic views of the city," *Studia Arabica & Islamica*, Festschrift for Iḥsān 'Abbas on his sixtieth Birthday. Edited by Wadād Al-Qādi. (Beirut: American University of Beirut, 1981) p. 273.

فللوطن اثر يعمل في طبائع كل امة (١) ، سلبا وايجابا ، بحيث تصلح الناس بمصلاح  
العوامل الجغرافية وتفسد بفسادها . قال الجاحظ :

"... وعلى قدر اختلاف طبائع الاماكن شاهدنا اللغات والاخلاق  
والشبهوات ولذلك قالوا : فلان " ابن بجدتها " وفلان " بيضة البلد " ،  
يقع ذمًا ويقع حمداً " (٢)

وقد ظهر اثر صلاح الهواء والترية والماء بأجلى صوره في مكة والمدينة والبصرة ومصر  
والشامات (٣) ، مما دفع الجاحظ الى طرح مقولته في تفاضل البلدان وبالتالي تفاضل  
الطبقات الاجتماعية المستقرة في هذه البلدان ، كفضل بني هاشم على قريش وفضل قريش  
على سائر قبائل العرب التي تفضل بدورها سائر الامم ، فضلا لا يعتمد على النسوة  
وخصائصها الاخلاقية فحسب وانما على محيطها البيئي الصالح ايضا (٤) . كما ظهر اثر  
فساد الهواء والترية والماء في الكوفة (٥) وانطاكية وقصبة الاهواز (٦) ، والاخيرة كانت

- 
- (١) اللفظ للجاحظ ، راجع كتاب في الاوطان والبلدان " ، رسائل الجاحظ ، ج ٤ : ١١٣  
(٢) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ٣ : ٢٩٤ .  
(٣) الجاحظ " كتاب في الاوطان والبلدان " ، رسائل الجاحظ ، ج ٤ : ١١٣ ، ١٣٨ ، ١٤١ .  
وقد ظهر الاثر الايجابي للبصرة ومصر في طول اعمار سكانها وحسن عقولها وحذقها  
جميع الصناعات فضلا عن كثرة دهرها في حين ان عامة الكوفة " خراب بياب " انظر  
المصدر نفسه ، ٤ : ١٤٢ .  
(٤) المصدر نفسه ، ٤ : ١٢١ ، ١٢٨ ، ١٣٦ ، ١٤١ .  
(٥) قال الجاحظ ان طبيعة الكوفة فاسدة التربة وخبثة المغرس والشمر كما قال : " وخبرني  
من بات انه لم يركواكبها زاهرة قط وانه لم يرها الا ودونها هبوة وكان في ما همم  
مزاج دهن " . انظر الجاحظ " كتاب الاوطان والبلدان " ، رسائل الجاحظ ، ٤ : ١٤٢ .  
(٦) انعكس فساد طبيعة الاهواز على حيوانها وانسها حتى ان البخل عمها معا .  
انظر البخل ، ١٣٠ .

تفسد مزايا بني هاشم لان تربة الاهواز فاسدة بخلاف تربة مدينة النبي (١). غير انه لا يفهم من ذلك ان الجاحظ اعطى العوامل الجغرافية هذه دورا مطلقا يُعَلَّلُ به جميع مظاهر السلوك الاجتماعي السلبي للامم ، او يعزو اليه محاسن الاجناس ، لان ذلك يتعارض مع مفهومه لعملية التكليف الالهي لافراد الامم جميعا ولذلك حرص الجاحظ كما رأينا في كلامه عن مثالب الامم المعتبرة ، الى ابراز عامل آخر غير مادي مسوؤول عن وقوعها في الخطأ؛ ألا وهو فساد الارادة البشرية حين تركز الى "الهوى والتقليد وترضى بالسابق الى القلوب وتذهب مع العصبية والاستسلام للنشأ" (٢). وقد عَمَّ الفساد المذكور الامم غير المعتبرة كالفقراطية والزنج حين التزمتا الساكن الويفة ولسم ترتحلا عنها الى البيئات الصالحة ، فكان تقاعسهما تأكيداً للرأى الجاحظ فيما يرافق لزوم مثل هذه الاماكن من الفشل والنقص . (٣)

وأخيراً لا آخراً ، تجدر الاشارة الى ان الجاحظ مع اعتقاده بتفاضل الامم والبلدان ، فهو لم ينظر نظرة عرقية الى سائر الاجناس من غير امة العرب . وفيما يتعلق بنظرته الى الاثنيات او الاعراق المختلفة المتواجدة في دار الاسلام فهي نظرة تعكس المفهوم الاسلامي للامة الذي يلحظ انصهار عدة اثنيات متماسكة فاعلة في بوتقة واحدة هي مؤسسة الخلافة . وقد ظهر هذا الموقف جلياً فيما عرضنا من اقواله في الامم وخاصة في رسالته في مناقب الترك وعامة جند الخلافة التي كتبها بهدف تأليف قلوب جند الخلافة (٤). وما يؤكد هذا الهدف وتلك الرؤيا التي تعكس السياسة الاممية فيسر

(١) الجاحظ "كتاب في الاوطان والبلدان" ، رسائل الجاحظ ، ج ٤ : ١٣٥ - ١٣٦ .

(٢) الجاحظ ، "كتاب الاخبار وكيف تصح" ، المجلة الآسيوية ، ص ١٠١ - ١٠٢ . قال الجاحظ : والنسق على التقليد هو الذي ملا خواطرهم وامات قلوبهم ولو كان ذلك من قبل الطالع والتربة لما حسن الامر والنهي ولما جاز الحمد والشواب واللائمة والعقاب ولما كان لارسال الرسل معنى .

(٣) الجاحظ ، "كتاب في الاوطان والبلدان" ، رسائل الجاحظ ، ج ٤ : ١٠٩ .

(٤) الجاحظ ، "رسالة في مناقب الترك" ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٢٩ و٣٦ و٨٦ .

القبلية او العرقية للدولة العباسية انتقاد الجاحظ التالي للشاعر المتلمس . فقال :

" ولقد اسرف المتلمس حيث يقول :

احارث انا لو تساط دماؤنا      تزايلن حتى لايمس دم دما  
واشد سرفا منه قول ابي بكر الشيباني . قال : كنت اسير مع بني عم لسي  
من بني شيبان وفيما من موالينا جماعة في ايدى التغالبة ، فضربوا اعناق بنسي  
عمي واعناق الموالي على وهدة من الارض ، فكنت والذى لا اله الا هو ،  
ارى دم العربي ينماز من دم المولى ، حتى ارى بياض الارض بينهمـا ،  
فان اكان هجينا قام فوقه ولم يعتزل عنه . " (١)

وبعد ، فاننا لانجد الجاحظ في كتاباته ، يعنى بتعريف الامة ، وانما نراه مكتفيا  
بذكر العوامل الفاعلة في نشوئها والمؤثرة فيها (٢) ، دون الاهتمام بطرح تحديد مباشر لها .  
وقد رد الجاحظ هذه العوامل المؤسسة لظهور امة والمقررة لهويتها ، التى  
ما قسمه الله من خصائص خَلْقِيَّةٍ وَخُلُقِيَّةٍ لامة ما (٣) وخصائص

(١) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ٣ : ٦١ .

(٢) كقوله في واقع امة العرب قبل الاسلام ، الذى يرجعه الى تراكم التفاعل الايجابي  
المميز بين جملة عوامل جغرافية وخلقية ، حتى صارت هذه العوامل " ولادة اخرى  
تناكحوا عليها وتماهروا من اجلها " اى قامت عندهم مقام حرمة الولادة وفضل الارحام  
الماسة ، تمهيدا للامر المزمع والحادث المتوقع . راجع : الجاحظ ، " رسالة نسي  
مناقب الترك " ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ١١ .

(٣) اى " ما قسم الله تعالى لاهل كل جيزة من الشكل والصورة ومن الاخلاق واللغة " وهي  
خصائص لا ارادية . انظر الجاحظ ، " رسالة في مناقب الترك وعامة جند الخلافة " ،  
رسائل الجاحظ ، ج ١ (١٩٦٤) : ١٠ - ١١ .

البيئة الجغرافية (١) المحيطة بتلك الامة ، فضلا عن ردة الفعل الاختيارية  
للارادة الانسانية (٢) ازاء هذه المعطيات ، الارادة التي يراها العنصر الاهم (٣)  
في تمييز امة عن سواها .

- 
- (١) اي " ما طبع الله عليه البلدة وما قسم لتلك التربة . . . كما تجد لأهل كل ماء وهواء  
وطينة نوعا من الاخلاق والمنظر والزي والصناعة واللغة . " انظر الجاحظ ، المصدر  
نفسه ، ص ٦٣ وانظر " كتاب الاخبار وكيف تصح ، " تحقيق شارل بلا ، المجلة  
الآسيوية ، ج ٢٥٥ ، ١٩٦٧ ، ص ١٠١ .
- (٢) وهذه الارادة غير مسخرة للمعصية او للفسدة لان الله تأبى على نفسه التيسير  
للمعاصي . انظر : الجاحظ ، "رسالة في حجج النبوة" ، رسائل الجاحظ ، ج ٣ :  
٢٤٦ وكتاب الحيوان ، ١ : ١٤١ .
- (٣) رأينا ان الجاحظ في حكمه على مناقب الام ومثالبها كان ينطلق من ملاحظته دور  
الارادة البشرية وردة فعلها الايجابية او السلبية ازاء المعطيات البيئية والمعنوية  
المتاحة امامها ، حتى نجد ، يعزو القسط الاوفر من مثالب الام كافة الى فساد  
الارادة وسوء الاختيار اكثر منه الى المحيط الجغرافي . انظر : الجاحظ ، كتاب الاخبار  
وكيف تصح ، ص ١٠١ وانظر ايضا : " كتاب الاوطان والبلدان " ، رسائل الجاحظ ،  
ج ٤ : ١٣٥ - ١٣٦ و ١٤٢ .

(أ) مؤلفات الجاحظ :

- ١ - البخلاء . تحقيق طه الحاجري . القاهرة : دار الكتاب المصري ، ١٩٤٨ .
- ٢ - البرصان والعرجان والعميان والحولان . تحقيق محمد مرسي الخولي . القاهرة وبيروت : دار الاعتصام ، ١٩٧٢ .
- ٣ - البيان والتبيين . تحقيق عبدالسلام هارون ، ٤ اجزاء . بيروت : دار الفكر ، د . ت .
- ٤ - الحيوان . تحقيق عبدالسلام هارون ، ٧ اجزاء . بيروت : دار احيا التراث العربي ، ١٩٦٩ .
- ٥ - رسائل الجاحظ . تحقيق حسن السندوبي . القاهرة : المطبعة الرحمانية ، ١٩٣٣ .
- ٦ - مكتبة الخانجي ، ١٩٦٤ و ١٩٧٩ . تحقيق عبد السلام هارون ، ٤ اجزاء . القاهرة :
- ٧ - "رسالة عمرو بن بحر الجاحظ في الحكمين وتصويب امير المؤمنين علي بن ابي طالب في فعله" ، تحقيق شارل بلا ، مجلة المشرق ج ٤ و ٥ ( السنة ٥٢ ، ١٩٥٨ ) ، ص ٤١٧ - ٤٨٧ .
- ٨ - العثمانية . تحقيق عبد السلام هارون . القاهرة : دار الكتاب العربي ، ١٩٥٥ .
- ٩ - " كتاب الاخبار وكيف تصح " ، تحقيق شارل بلا . المجلة الآسيوية Journal Asiatique الجزء ٢٥٥ ( ١٩٦٧ ) ، ص ٩١ - ١٠٥ .
- ١٠ - كتاب التربيع والتدوير . تحقيق شارل بلا . بيروت : المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٥٥ .
- ١١ - مجموع رسائل الجاحظ . تحقيق محمد طه الحاجري . بيروت : دار النهضة العربية ، ١٩٨٣ .
- ١٢ - المحاسن والاضداد . تحقيق فوزى عطوى . بيروت : دار صعب ، ١٩٦٩ .

- ١٣ - " من دفاين رسائل الجاحظ : (١) رسالة في اثبات امامة امير المؤمنين علي بن ابي طالب ، (٢) رسالة في تفضيل بني هاشم على من سواهم " ، مجلة لغة العرب ، الجزء ٦ و ٧ ( السنة ٩ ، ١٩٣١ )  
صفحة ٤٩٧ - ٥٠١ و ٤١٣ - ٤٢٠ .

(ب) المصادر العربية عدا مؤلفات الجاحظ :

- ١ - ابن الاثير ، ابو السعادات مبارك بن محمد . النهاية في غريب الحديث . ج ١ ، مصر : المطبعة العثمانية ، ١٣١١ هـ .
- ٢ - ابن حزم ، ابو محمد علي بن احمد . جمهرة انساب العرب . تحقيق ليفي بروفنسال . مصر : دار المعارف ، ١٩٤٨ .
- ٣ - ابن خلدون ، ابو زيد عبد الرحمن بن محمد . العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر . ج ١ ( المقدمة ) . القاهرة : بولاق ، ١٢٨٤ هـ .
- ٤ - ابن خلكان ، شمس الدين ابو العباس احمد بن محمد . وفيات الاعيان . ج ٦ ، تحقيق احسان عباس . بيروت : دار الثقافة ، ١٩٧٢ .
- ٥ - البيروني ، ابو الريحان محمد بن احمد . تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل او مردولة . حيدرآباد الدكن : مجلس دائرة المعارف العثمانية ، ١٩٥٨ .
- ٦ - الخوارزمي ، ابو عبدالله محمد بن احمد . مفاتيح العلوم . تحقيق ج . فان فلوتين . ليدن : بريل ، ١٩٦٨ .
- ٧ - المسعودي ، ابو الحسن علي بن الحسين . التنبيه والاشراف . بيروت : مكتبة خياط ، ١٩٦٥ . وليدن : مطبعة بريل ، تحقيق م . ج . دوفويه ، ١٩٦٧ .
- ٨ - ياقوت الرومي ، شهاب الدين ابو عبدالله . معجم البلدان . ج ١ . بيروت : دار صادر ودار بيروت ، ١٩٥٥ .
- ٩ - الجواليقي . المعرب من الكلام الاعجمي على حروف المعجم . القاهرة : دار الكتب المصرية ، ١٣٦١ هـ .

ثانياً: المراجع .

( أ ) المراجع العربية :

- ١ - بلا ، شارل ، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامرا . ترجمة ابراهيم الكيلاني . دمشق : دار اليقظة العربية ، ١٩٦١ .
- ٢ - الحاجرى ، طه . الجاحظ حياته وآثاره . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٩ .
- ٣ - خفاجي ، محمد عبد المنعم . ابوعثمان الجاحظ . بيروت : دار الكتاب اللبناني ، ١٩٨٢ .
- ٤ - شلحت اليسوعي ، فكتور . النزعة الكلامية في اسلوب الجاحظ . القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٤ .
- ٥ - عمر ، فاروق ، طبيعة الدعوة العباسية . بيروت : دار الارشاد للطباعة والنشر ، ١٩٧٠ .
- ٦ - كتابجي ، زكريا ، الترك في مؤلفات الجاحظ . بيروت : دار الثقافة ، ١٩٧٢ .
- ٧ - ونسك ، أ . ي . ، ومنسج ، هـ . ب . المعجم المفهرس لالفاظ الحديث النبوى . ليدن : بريل ، ١٩٦٧ .



- 1- 'Atiya, A.S. S.v. "Kibt!" In The Encyclopaedia of Islam.  
New ed.
- 2- Barthold, W. S.v. "Toghuzghuz." In The Encyclopaedia of Islam 1st e
- 3- Beeston, A.F. S.v. "Abraha!" Ibid. New ed.
- 4- Delafosse, Maurice, S.V. "Sūdān!" Ibid. 1st ed.
- 5- Ferrand, G. S.v. "Al-Amīn!" In The Encyclopaedia of Islam.  
New ed.
- 6- \_\_\_\_\_, S.v. "Zābag!" Ibid. 1st ed.
- 7- Khalidi, T. Islamic Historiography. N.Y.: State University of  
New York Press, 1975.
- 8- \_\_\_\_\_, "A Mosquito's Wing: Al-Jāhiz on the Progress of  
Knowledge." In Arabic and Islamic Garland. Edited by colleagues,  
friends and students of Abdul-Laṭif Ṭibāwi, London, 1977.
- 9- \_\_\_\_\_, "Some Classical Islamic Views of the City." In Studia  
Arabica et Islamica. Festschrift For Ihsān 'Abbas on his  
Sixtieth Birthday. Edited by Waḡād al-Qāḍi, Beirut: American  
University of Beirut, 1981, pp. 265-276.
- 10- Le Strange, Guy, The Lands of the Eastern Caliphate. Cambridge  
University Press, 1930.
- 11- Lockhart, L. S.V. "Al-Ahwāz!" In The Encyclopaedia of Islam.  
New ed.
- 12- Muir, W. The Caliphate, its rise, decline and fall. Edinburgh,  
1915.

- 13- Pellat, C. The Life and Works of Al-Jāhiz. Berkeley: University of California Press, 1969.
- 14- \_\_\_\_\_, S.v. "Al-Djāhiz!" In The Encyclopaedia of Islam. New ed.
- 15- \_\_\_\_\_, S.v. "Ḥilf al-Fudūl!" Ibid.
- 16- Rocher, L. S.v. "Sutra and Sastra Literature." In The Encyclopaedia of Religion, v. 13, 14. New York: Macmillan Publishing Co., 1987.
- 17- Rosenthal, F. Technique and Approach of Muslim Scholarship. Rome: Pontificium Institutum Biblicum, 1947.
- 18- Van Ess, J. "The Logical Structure of Islamic Theology." In Logic in Classical Islamic Culture. Edited by G.E. Von Grunebaum. Wiesbaden: Otto Harrassowitz, 1970.
- 19- Zettersteen, K.V. S.v. "Al-Abnā'"! In The Encyclopaedia of Islam. New ed.